جامعة الدكتور يحي فارس بالمديـــة

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

قسم العلوم الإنسانية

أوضاع تونس خلال فترة محمد الصادق باي(1859 1882)

من خلال إتحاف أهل الزمان بأخبار مولوك تونس وعهد الأمان لأحمد بن أبي الضياف في جزئيه الخامس والسادس

مذكرة لنيل شهادة ماستر تخصص حديث ومعاصر

من إعداد الطلبـــة :

- وفـاء بوشـريط
- عـــفاف تونسي

تحت إشراف الأستاذة:

- حفيظة بوتوقوماس

السنة الجامعية: 2017 - 2018


بسم الله الرحمن الرحيم

شكر وتقدير

و مصداقا لما جاء في قوله عز وجل،

قال تعالى:" لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيْدَنَكُمْ"..(إبراهيم 07)

فأولا وقبل كل شيء الحمد لله الذي أنار لنا درب العلم والمعرفة، وأعاننا على أداء هذا العمل، ووفقنا على إنجازه.

وامتثالا لقوله صلى الله عليه وسلم:" فمن لم يشكر الناس لم يشكر الله"

نتقدم بجزيل الشكر وأسمى عبارات التقدير للأستاذة المشرفة "**حفيظة بوتوقوماس**" جزاها الله كل خير، التي لم تبخل علينا بدعمها ونصائحها وإرشاداتها، وإصرارها على إخراج هذا العمل في أحسن صورة، فقد أنارت لنا الطريق لآخر لحظة لإنجاز هذا البحث.

كما نتقدم بجزيل الشكر والتقدير إلى كل من ساعدنا في عملنا هذا، وعلى أسهم الأسهم الأستاذة"**رحماني**" إضافة إلى الأستاذة "**ركاش**"

كما نشكر كل من ساعدنا من قريب أو بعيد، وأمد لنا يد العون

كما نتقدم بالشكر الجزيل إلى كل من علمنا حرفا، من الطور الابتدائي إلى الطور الجامعي.

كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" من قال لأخيه جزاك الله خيرا فقد كفاه ".

فجزاكم الله عنا خير الجزاء

إ هـد ا ء

أجمل ما في الحياة أن يصل الإنسان إلى مبتغاه، وأن يتحقق النجاح برضا الله والوالدين، الحمد لله الذي أتم نعمته علي، وحقق لي ما رغبت فيه، والصلاة والسلام على الرحمة المهداة، سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

إلى التي ربتنا وأنارت دربنا وأعانتنا بالدعاء

إلى التي ابتسمت لحظة لسعادتنا ومسحت بجناحها علينا لحظة شقائنا، إلى نور عيني، وفرحة حياتنا

إلى الشمعة التي احترقت لتنير درب حياتنا، إلى الوجه الذي يبتسم حين يرانا، إلى الأنس الذي واسانا في أحزاننا،

إلى التي عانقت مشاق الحياة لتصل بنا إلى أعلى المراتب، فكانت الأب والأم بامتياز، وعلمتنا الصمود مهما كانت الظروف فتحملت أعباء الحياة لأجلنا، فانحنت من أجل استقامتي، فإليك أقدم شكري يا أغلى الأحباب

" أمي الحبيبة"

إلى الصحن الأمين والركن المتين، إلى الرجل الذي لم تسمح له السنين حتى يراني ثمرة صالحة، فإلى الغالي أقدم عملي، إلى من يعود إليه نسبي وانتمائي إلى أعز شخص على قلبي إلى الذي اشتاق إليه فكل يوم ينقصني

إلى روح أبي الغالي الذي لم أنعم بوجوده معي، أقدم عملي "لأبي الغالي"

إلى من تقاسمت معه مرار ة الحياة وحلاوتها ولم يبخل علينا بإرشاداته و نصائحه ، فكان الأخ و الأب أخي العزيز "بلقاسم وأخواتي حجيلة، فاطمة الزهراء، أسماء وزوجة أخي فاطمة"

إلى من أنار البيت بابتسامته ابن أخي " أحمد رابح"

إلى من سأقاسمه حياتي خطيبي " منصور"

دون أن أنسى أخوالي وخالتي، خالي أحمد وزوجته وأبناؤه ملك، محمد، رهف، آنيا، وإلى خالتي فتيحة، سعاد، كريمة، أمال دون أن أنسى جدي وجدتي الأعزاء وإلى التي قاسمتني عناء إنجاز صديقتي البشوشة "عفاف"

إلى رفيقا دربي حبيبات قلبي صديقاتي زميلاتي في الدراسة أمينة، حورية سمية ، فادية، فايزة، فريدة

وفـــاء

إ هـد ا ء

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على سيدنا

وحبيبنا محمد صلى الله عليه وسلم أما بعد:

أهدي ثمرة عملي هذا إلى أعز خلق الله عز وجل، إلى من قال فيهما المولى:"وَاخْفِضْ لَهُمَآ جَنَاحَ الذُّلِ مِنَ الرَّحْمَةِ، وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَآ كَمَا رَبَيَانِيْ صَغِيْرًا"

إلى من قارن الله طاعته بطاعتها، إلى من قال فيها النبي صلى الله عليه وسلم:" إن الجنة تحت أقدامها"، إلى ذات القلب الصافي والحب الدافئ في قلبي، التي أشرقت عيني بنورها والتي حملتني في بطنها وربتني في حضنها، وسقتني حنان قلبها

إلى التي تعجز العبارات عن وصفها " أمي الحنونة" التي تحملت علينا الكثير، حاربت من أجل ابتسامتنا، وأعطتنا ودعمتنا بدعائها في كل خطوة نخطوها.

ماما الغالية الطيبة " محجوبة" أطال الله في عمرها.

إلى الذي تعب دون ملل وسهر دون كلل، الذي حرم نفسه من كل شيء لأحصل على كل شيء الذي غمرني بعطفه وأعطاني من عمره كي أحقق ما أصبو إليه

رمز فخري وسر نجاحي سندي المتين في مشواري، الذي حصد الأشواك عن دربي ليمهد لي طريق العلم والنجاح، إلى رمز الشجاعة والاحترام، الذي تعب من أجلي وشقي لأصل

إلى ما أنا عليه، إلى القلب الكبير " أبي رابح" أطال الله في عمره

إلى من تقاسمت معهم حلاوة وصعوبة الأيام إخوتي وأخواتي إلى أخي " مروان، عمر

الذي عشنا معه أياما حلوة ومليئة بالضحك والفكاهة" حفظه الله في عمله. إلى أخي الصغير "عيسى آدم" الكتكوت الصغير شمعة البيت وبهجته،

سهل الله خطاه إلى أخواتي بدءا ب نورة البنت الصامتة الهادئة الطيوبة"أمينة" المتأدبة الحنونة، وشيماء عصفورة البيت .إلى من كل جدي وجدتي، وخالتي "حبيبة" وأولادها وبناتها

إلى بقية خالاتي وأبنائهم إلى كل أخوالي وأولادهم إلى كل أعمامي وعماتي إلى رفيقات دربي حبيبات قلبي صديقات طفولتي زميلاتي في الدراسة اللواتي تقاسمن معي حلاوة ومرارة المواقف التي لا تسعني المذكرة لكتابة ما في قلبي: فريدة، حورية، وفاء، أمينة، فايزة، زهراء، نسيمة، نادية، سمية، كنزة.

إلى من قاسمتني عناء تعب هذه المذكرة، إلى صديقتي الحنونة وصاحبة الأخلاق رفيقتي "وفاء" إلى كل من عرفني يوما وأحبني في الله الذين سعتهم ذاكرتي ولم تسعهم مذكرتي

عفـــاف

المقدمة

المقدمة:

يمثل الموقع الاستراتيجي نقطة هامة في تطور وازدهار الدول، وذلك لما يحتويه من أهمية سياسية، اقتصادية واجتماعية، ولقد حظيت بهذه الأهمية العديد من الدول بما في ذلك تونس، والتي تقع في الجزء الشرقي العربي في ملتقى حوض البحر الأبيض المتوسط، متفتحة عليها بأكملها، إذ يبلغ طول ساحلها 1200كلم، فهي تتأثر بمناخه ويساعدها البحر في مبادلاتها مع الشعوب الأخرى، كما أنها تخضع في جزئها الجنوبي إلى تأثير الصحراء الكبرى لكنها أقل تصحرا من جاراتها القريبة.

ولقد طرأت على تونس تغيرات مست مختلف جوانبها السياسية، الاقتصادية والاجتماعية، وذلك بدخول الدولة العثمانية عليها، خاصة فيما يتعلق بالقرن 19م، إذ يعد قرنا عصيبا بمقارنته بغيره من القرون السابقة إذ شهد أحداثا جساما عرفها القطر التونسي، فبعض المؤرخين جاء في كتبهم ما يكفي لتصوير الوضع العام المتردي بالإيالة التونسية، وفي صدارة هؤلاء نجد أحمد ابن أبي الضياف، إذ يعتبر خير شاهد على تلك الدبلوماسية لمعايشة لأحداثها، كيف لا وقد امتدت حياته ثلاثة الأرباع الأولى من القرن 19م من ناحية، ومن ناحية أخرى فقد كان يعيش أجواء الدبلوماسية واطلع على خفايا أمورها داخل بلاطات البايات ، الذين عمل تحت أمرتهم، فخاض غمار الأحداث مباشرة، وكانت جميع الوثائق المفيدة من مراسلات وتقارير وغيرها تحت تصرفه، ليصدر كتابه الشهير "اتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان" وهو موضع بحثنا الذي يتحدث عن: أوضاع تونس خلال فترة حكم محمد الصادق باي من خلال مؤلف أحمد بن أبي الضياف في جزئيه الخامس والسادس.

وتسعى هذه الدراسة إلى التعرف على أوضاع تونس في جميع الميادين السياسية الاقتصادية والاجتماعية، خلال هذه الفترة فترة حكم محمد الصادق باي ، والتي جاء بعدها فرض الحماية على تونس من طرف فرنسا سنة 1881م .

أسباب اختيارنا للموضوع .

– الرغبة في التعرف على هذه الفترة من تاريخ تونس، و حبنا في الاطلاع على تاريخ تونس الحديث، و ذلك لما تحتويه من أحداث تستحق الوقوف عندها و النظر اليها.

– التعرف على المؤرخ و نظرته حول أوضاع تونس في الفترة التي سبقت الحماية، باعتباره شاهد عيان للأحداث.

–معرفة الأوضاع التي عاشتها تونس خلال فترة حكم محمد الصادق باي و أهم الاعمال التي قام بها هذا الأخير.

أهمية الدراسة:

–تكمن في التعرف على أوضاع تونس خلال فترة حكم محمد الصادق باي والتي كانت فترة مليئة بالأحداث في جميع الأصعدة.

–تكمن في كون كتاب اتحاف اهل الزمان بأخبار ملوك تونس و عهد الامان لأحمد بن علي الضياف ،و الذي يعد مرآة عاكسة لأوضاع تونس، كيف لا و قد عايش المؤرخ تلك الاحداث و كان عضوا نشطا فيها.

الاشكالية :

بماذا تميزت فترة حكم محمد الصادق باي؟

وللإجابة على هذه الإشكالية استوجب علي طرح الأسئلة التالية:

– كيف كان واقع البلاد السياسي و الاقتصادي و الاجتماعي؟

– كيف كان التدخل الاجنبي ممثلا في نشاط القناصل الاجانب من فرنسيين و إنجليز و ايطاليين، فضلا عن الاتراك العثمانيين ؟

و للإجابة على هذه التساؤلات استوجب علينا تقسيم البحث الى اربع مباحث ، علاوة على المقدمة و الخاتمة.

تناولنا في المبحث الأول، التعريف بالمؤلف أحمد بن ابي الضياف، و مؤلفه اتحاف اهل الزمان بأخبار ملوك تونس و عهد الأمان، إضافة إلى لمحة تاريخية قبيل فترة حكم محمد الصادق باي، و المتمثلة في حكم أحمد باي ثم محمد باي.

أما المبحث الثاني فيندرج تحت عنوان : "أوضاع تونس خلال حكم محمد الصادق باي " في مختلف الجوانب السياسية الاقتصادية و الاجتماعية، و المتميزة بنوع من التدهور و عدم الاستقرار، و سبب ذلك هو ضعف السلطة الحاكمة و الإهمال الكبير من طرف الوزراء في تسيير أمور الدولة و هو ما انعكس سلبا على الوضع العسكري و المالي.

إضافة إلى الأوضاع الاقتصادية من زراعة و صناعة و تجارة بنوعها الداخلية و الخارجية، و التي عرفت تدهور كبير مما أدى الى وقوع البلاد التونسية في ديون كبيرة. وفي المقابل عرفت الأوضاع الاجتماعية ترديا كبيرا نتيجة انتشار الأمراض والأوبئة كالكوليرا.

أما المبحث الثالث فقد كان تحت عنوان:" علاقة تونس الخارجية وفرض الحماية" وذلك من خلال العلاقات الخارجية لتونس مع الدولة العثمانية، فرنسا، إنجلترا وإيطاليا، من خلال التدخل في الشؤون الداخلية، هذا ما انجر عنه فرض الحماية الفرنسية على تونس.

أما المبحث الرابع فكان بعنوان:" نقد وتقييم الكتاب" و ذلك من الناحية المنهجية وطريقة عرض الأحداث، إضافة إلى طرح الموضوع وسبب اختيار الفترة التاريخية، حيث يعتبر هذا المؤلف أهم مصدر يمكن لباحث التاريخ أن يعتمد عليه في دراسة تاريخ تونس بداية من العصر الحسيني .

المنهج المتبع:

للإجابة على هذه التساؤلات و الوصول الى النتائج المتوخاة كان لابد من الاعتماد على المنهج التاريخي التحليلي النقدي لتتبع الوقائع التاريخية في تونس، ونقدها وهو منهج بحث علمي يقوم بالكشف والبحث عن الحقائق التاريخية .

عرض بعض المصادر والمراجع:

اعتمدنا في عملنا هذا على مجموعة من المصادر و المراجع التي ساهمت بشكل كبير في خدمة و إثراء هذا العمل من أهمها:

-ابن أبي الضياف: اتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان .

الكتاب فيه ثمانية أجزاء، اعتمدنا على أجزاء منه، ويؤرخ هذا الكتاب للإيالة التونسية في العهد العثماني متبعا أهم الأحداث التي ميزته دون تحليل أو تعقيب، ويتناول الكتاب أهم مراحل الحكم الحسيني .

-أبي عبد الله محمد ابن عثمان السنوسي: مسارات الظريف بحسن التعريف ،الجزء الأول .

حيث تضمن هذا الكتاب جملة من الأحداث التاريخية عبر مراحل العصر الحسيني ، حيث تحدث عن ملوك العصر الحسيني مبرزا أهم أعمال كل ملك و خصائص ملكه ، إضافة الى علاقتهم الخارجية .

-الشيباني بن بلغيت: الجيش التونسي في عهد الصادق باي

و الذي تناول جملة من الأوضاع السياسية والمالية، إضافة إلى وضع الجيش التونسي في عهد الصادق باي، كما تحدث عن العلاقات الخارجية للإيالة التونسية، وما مدى تأثيرها على الوضع الداخلي لتونس، مشيرا إلى دور الوزراء في إفشال الأوضاع السياسية والمالية للبلاد .

صعوبات البحث :

ومن بين الصعوبات التي واجهتنا صعوبة توظيف كل القضايا التي عالجها الموضوع ، بسبب تداخل المعلومات وتراكمها ، إلا أنه حاولنا جاهدين توظيف القضايا الهامة التي تخدم الموضوع وفك ملابساته.

مدخل تمهيدي: أحمد بن أبي الضباف مؤرخا و حال الايالة التونسية في النصف الأول من القرن 19 م .

المطلب الأول: التعريف بالمؤلف

المطلب الثاني: التعريف بالكتاب

المطلب الثالث: لمحة تاريخية قبل حكم محمد الصادق باي

1-تعريف المِؤلف :

هو مؤرخ تونسي ورائد من رواد الإصلاح، ولد في 1214هـ/1804م، ينتمي إلى أسرة عربية عريقة، في منطقة سيليانا، درس بجامع الزيتونة وتلقى قسطا وافرا من العلم على أبرز شيوخ تونس، منها العلوم الدينية، اللغوية، الأدب والتاريخ، فكان يتمتع بحس سياسي ومرونة فكرية وأخلاقية، فحظي بذلك ثقة كبيرة من طرف الأمراء .

لقد تقلد أحمد ابن أبي الضياف مناصب عديدة في الدولة، ذلك من خلال الثقة الممنوحة له ومهاراته العلمية المتعددة، فانتظم في سلك العدول سنة 1232 هـ/ 1822م، وأولى خطة الكتابة في عهد حسين باي في سنة 1829هـ /1239 م، فازدادت مكانته علوا بتقلده لرتبة أمير لواء في عهد مصطفى باي فتحصل على الوسام الحسيني في 1849هـ /1259 م، وأصبح مستشارا في عهد أحمد باي بتقلده اختصاصات عديدة مثل اختصاصات الباشكاتب محمد الأصرم فأصبح بذلك ذا مكانة مرموقة وذا صيت مسموع يشار به في صنع القرارات ذلك من خلال المرسلات والبعثات التي أنشأها مع الدولة العثمانية، وبعض من ترحاله إلى الدول الأوروبية مثل فرنسا ففي سنة 1256هـ/1846م، سافر إلى فرنسا واطلع على مدى التقدم الذي وصلت إليه أوربا. كما زار أحمد ابن أبي الضياف جامع الزيتونة الذي أعطى له اهتمامات كثيرة ووضع قواعد عديدة للتعليم فيه وفي هذه الفترة انحاز إلى تيار الإصلاح، فلم يكن مؤرخا فحسب، بل أحد زعماء[1]،النخبة المؤيدة للإصلاح وقد أسهم في هذا المجال إسهاما كبيرا.

[1] -الصادق الزمرلي: أعلام تونسيون، ط1، تح حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان، 1986م، ص ص 71-73 .

احتفظ أحمد ابن أبي الضياف لمكانته في عهد محمد باي الذي يقول عنه ""كاتب سر أمير اللواء محبنا الشيخ أحمد ابن أبي الضياف"" حيث كلفه بكتابة عهد الأمان، كما كلفه بقراءته أمام حشد من العلماء وكبار رجال الدولة[1] .

واصل أحمد ابن أبي الضياف مهامه في تقلد المناصب إلى غاية السنوات الأولى من عهد الصادق باي، الذي كلفه هذا الأخير بما كلفه سابقيه بصياغة عهد الأمان، فكان واحدا من أعضاء المجلس الأكبر، أما في سنة 1861هـ/1250م، بدأ نفوذه يتراجع بعد تعيين الباي كاتبا جديدا هو أبو عبد العزيز، فرغم هذا احتفظ أحمد ابن أبي الضياف بدوره المهم في وزارة المالية .

أما بعد هذا فلم نجد لابن أبي الضياف ظهورا إلا نادرا، فأخذ يستسقي الأخبار التي يسجلها من جريدة الرائد أو ما يسمعه من أصدقائه الذين ما يزالون يحتلون مراكز مرموقة في الدولة، حيث كانت جل كتابته ذات انتقادات كثيرة موجهة إلى الدولة مثل تعطيل الدستور وحل المجلس الأكبر ونكث عهود الأمان، وإرهاق الناس بالجبايات، والتلاعب بأقوات الشعب .

توفي أحمد ابن أبي الضياف في 1284هـ/1874م، فقد كان وطني تونسي، مع إيمانه بالتضامن الإسلامي و وطنيته هي التي دفعته إلى التأليف وتخصيصه إلى تونس، فلقد حاول وصف أوضاع تونس داخليا وخارجيا بصفة مميزة باعتباره شاهد عيان على تلك الأحداث[2] .

2-التعريف بالكتاب :

ينطوي هذا الكتاب تحت عنوان "اتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان " للمؤلف أحمد ابن أبي الضياف وهو من أبرز أعماله، يحتوي الكتاب حسب تقسيم المؤلف إلى مقدمة وثمانية أبواب وخاتمة .

---

[1] – أحمد ابن أبي الضياف: اتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، ج5، تونس، 1964، ص177.

[2]– ناظر كلاس: بحوث ودراسات في التاريخ العربي، دار شمال للطباعة والنشر، دمشق سوريا، ص ص 201-203 .

تحتوي المقدمة عقدين، فالعقد الأول فلقد خصصه أحمد ابن أبي الضياف في الملك وأصنافه مبرزا في ذلك الدور الذي يلعبه الملك في مسار أي أمة ودولة، كما بين أنه واجب علينا أن نعمل به باعتباره حامي لحقوق شعبها من الضياع. حيث قسم أحمد ابن أبي الضياف الملك في رأيه إلى ثلاثة أصناف "ملك مطلق، ملك جمهوري، ملك مقيد"، حيث يرى أن الملك المطلق مخالف للشرع لأن القرآن ينهى عن الظلم، ومخالف للعقل وهو سبب الفوضى وانعدام الأمن أما الصنف الثاني هو الملك الجمهوري يتحدث عنه بإيجابية ويرى فيه نفع دنيوي للعامة والخاصة حيث كان أمرهم شورى بيهم، لكنه لا يحبذ هذا النوع لأن قواعد الملة الإسلامية لا تقتضي هذا الصنف الجمهوري. أما الصنف الثالث هو ملك المقيد أي الحكم الملكي الدستوري فهو مطابق للشرع والعقل، لأن أمره دائر بين العقل والشرع، وصاحبه يتصرف بقانون معلوم معقول في سائر أموره .

أما العقد الثاني من المقدمة فقد تحدث عن أمراء إفريقيا فالصحابة والتابعين

أما الأبواب الثمانية فقد تحدث أحمد ابن أبي الضياف بإطناب عن الملوك بعددها، حيث حظي كل واحد بباب ملك مبرزا أهم أعماله وخصائص ملكه وأهم الأحداث البارزة في تلك الفترة وعلاقاتهم الخارجية وهم على التوالي حمود باشا، عثمان باي، محمود باي، حسين باي، أحمد باي، محمد باي، محمد صادق .

أما الخاتمة فقد تضمنت ما تيسر لعلم المؤلف من تراجم بعض الأعيان، والوزراء والكتاب وغيرهم[1] .

أ_ من حيث الشكل :

- عنوان الكتاب: اتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان .
- المؤلف: أحمد ابن أبي الضياف، تحقيق: لجنة من كتابة الدولة للشؤون الثقافية والإرشاد ج5،ج6، تونس، 1964م .

[1] - ناظر كلاس: المرجع السابق، ص 198.

- عدد الصفحات: ج5: 193 صفحة، ج6: 142 صفحة .
- حجم الكتاب: 30 X20 سم، الحجم المتوسط.
- الواجهة الأمامية: (صورة الغلاف): كتب عليها عنوان الكتاب بخط سميك ذو لون أسود، بينما اسم المؤلف كتب بخط رقيق متوسط السمك ذو لون أسود كما كتب عليها سنة النشر في كلا الجزئين .
- الواجهة الخلفية: غلاف أبيض .

ب- من حيث المحتوى: كتاب اتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان للمؤلف أحمد ابن أبي الضياف، تضمن الكتاب عناوين عديدة في مختلف الجوانب السياسية، الاقتصادية، العسكرية، الاجتماعية، وذلك بعد تقلد محمد صادق باي منصة الحكم وأهم الأحداث التي ترتبت إثر ذلك.

فالباب الخامس تناول عدة عناوين عالجت بنود ومبادئ عهد الأمان وما مدى تطبيقه من طرف الصادق باي. إضافة إلى أسباب ودوافع ثورة ابن غداهم 1846م، ومواقف الدول الجنبية منها .

أما الباب السادس فقد تناول العلاقات التونسية الخارجية:

كالدولة العثمانية، والدول الأوروبية (فرنسا، إيطاليا و انجلترا) وتأثير هذه العلاقات على الوضع الداخلي في تونس، إضافة إلى شرح بعض الأوضاع الصحية وذكر بعض الأمراض والأوبئة مثل الكوليرا .

03-نبذة تاريخية قبيل حكم محمد صادق باي.

المشير أحمد باشا باي:(1221-1271هـ/1837-1855م)

هو المشير أبو العباس أحمد بن مصطفى بن محمود بن محمد الرشيد بن حسين بن على تركي[1] ، ولد سنة 1221هـ/1806م، وأهتم بتربيته مصطفى صاحب الطابع

تمت له البيعة في 10 رجب 1253هـ/10 أكتوبر 1837م، ونظم دولته وجمع رجالها، وكان مصطفى صاحب الطابع كاليد اليمنى بالنسبة للباي[2]، ومن بين الأعمال التي قام بها، نجده قد سافر إلى باريس لمقاصد سياسية 1262هـ/1846م[3] إضافة إلى إصدار أحمد باي أمر سنة 1262هـ/1846م، ينص على عتق جميع العبيد الموجودين بتونس[4] .

كما عمل الباي على الاعتناء بالعسكر وتربيته وتنظيمه وتعميره بالعدد والعدة[5]، إضافة إلى اعتناءه بالأسطول البحري وتجهيزه بما يلزم ذلك، وإعداده

مرسى حربيا بغار الملح[6] كما أن الفرنسيين عملوا على تدريب الجيش وجعله يرتدي الزي الأوروبي[7] .

وقد عرفت بداية فترة حكم أحمد باي نهوض القطاع الاقتصادي، خاصة في المجال الزراعي والصناعي، لتمر البلاد بفترة ينقلب فيها الوضع الاقتصادي، وذلك راجع إلى الاهتمام الزائد بالجانب العسكري، هذا ما أدى إلى جعل الولاية في ضائقة مالية، مما اضطرها لإحداث ضرائب جديدة على الصادرات والواردات

---

[1] -أبي عبد الله محمد بن عثمان السنوسي: مسارات الظريف بحسن التعريف، ط1 ج1، تع تح محمد الشاذلي النيفر، د الغرب الإسلامي، لبنان،1994، ص 137.

[2] -السنوسي، المصدر السابق، ص138.

[3] -نفسه، ص 141.

[4] -أحمد بن أبي الضياف، المصدر السابق، ج4، ص84 .

[5] -السنوسي، المضدر السابق، ص 138 .

[6] -حسن حسني عيد الوهاب: خلاصة تونس، ط3، د الكتب العربية الشرقية، تونس، 1918م، ص200 .

[7] -صلاح العقاد: المغرب العربي في التاريخ الحديث والمعاصر، ط6، مكتبة الايخاو المصرية، 1993م، ص165.

كل هذه الأوضاع الاقتصادية إضافة إلى الحكم المطلق المستبد، كان بداية المشكلات التي واجهتها تونس[1] .

هذا وقد قام أحمد باي بجمع آلاف المجلدات من الكتب وأوقفها بجامع الزيتونة[2].

وتأسيس المكتبة الأحمدية عام 1256هـ/1840م[3]، وإنشاء مدينة جديدة على بعد 14 ميلا من تونس، عرفت باسم المحمدية لينقل إليها مقر حكومته بدلا من باردو[4] .

كما عمل أحمد باي على توطيد علاقاته الدبلوماسية مع الدول الأوربية، إضافة إلى علاقته مع الدولة العثمانية، وفي الفترة التي كانت فيها هذه الأخيرة في حرب مع دولة الموسكو، عمل الباي على مساعدتها، باعتبار أن ذلك من حقها، ليصل الجيش التونسي لها أوائل محرم 1271هـ/أواخر سبتمبر 1854م[5] .

لينتهي عهد أحمد باي بوفاته بحلق الوادي في 16 رمضان 1271هـ/ ماي 1855م[6]

-المشير محمد باشا باي (1226-1276هـ/1811-1859م)

(1) –صلاح العقاد ، المرجع السابق ، ص 167.

(2) –السنوسي، المصدر السابق، ص141 .

(3) –شوقي عطا الله الجمل: المغرب العربي الكبير في العصر الحديث، ط1، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، 1977م، ص115 .

(4) م- محمد بيرم الخامس، صفوة الاعتبار في مستودع الأمصار و الأقطار ، القطر التونسي ،ط1 ، تح علي بن الطاهر الشوقي ، المجتمع التونسي للعلوم و الآداب و الفنون ، بيت الحكمة ،، تونس ، 1991،م2، ص 58-63 .

(5) –أحمد بن أبي الضياف، المصدر السابق، ج4، ص157 .

(6) –السنوسي، المصدر السابق، ص145 .

هو المشير أبو عبد اله محمد بن حسين بن محمود بن محمد الرشيد بن حسين بن على تركي[1]، ولد في شعبان 1226هـ/ سبتمبر 1811م[2]، قرأ القرآن وتدرب في الفروسية والرماية[3] .

بويع في 1271هـ/1855م وأبقى سائر الوزراء الذين كانوا في عهد أحمد باي على وظائفهم[4] .

وبدأ العمل في الدولة التونسية بإرسال مجموعة من العسكر لإعانة من في خدمة الدولة العثمانية من العساكر التونسية[5]، ويعد محمد باي أول من ضرب سكة الذهب والفضة والنحاس والنحاس باسمه في أحد وجهي المسكوك[6].

وقد قدم من فرنسا، القنصل ليون روش والذي عمل على مصاحبة محمد باي، والذي سيكون له دور فعال في مسار العلاقات الفرنسية التونسية[7].

لقد وضع محمد باي ما يسمى بعهد الأمان 1275هـ/1858م، وذلك راجع إلى حادثة قتل يهودي من الحاضرة، حيث استغل كل من فرنسا وانجلترا هذه الظروف، بسبب إعدام اليهودي، ليعمل القنصل الفرنسي ليون روش و القنصل الانجليزي ريتشارد وود بالضغط على الباي منتقدين عليه الحكم الذي أصدره، ومطالبين بتطبيق فرمان التنظيمات الخيرية[8].

---

[1] –السنوسي ، المصدر السابق، ص146 .

[2] –أحمد بن أبي الضياف، المصدر السابق، ج4، ص185 .

[3] –نفسه، ص 185 .

[4] –السنوسي، المصدر السابق، 146 .

[5] –أحمد بن أبي الضياف، المصدر السابق، ج4، ص ص 188–190 .

[6] –السنوسيي، المصدر السابق، ص115 .

[7] –أحمد بن أبي الضياف، المصدر السابق، ج4، ص ص188–190 .

[8] –التنظيمات الخيرية: ورد في 1256هـ/1840م، من طرف الدولة العثمانية وهو فرمان التنظيمات الخيرية المبني على أساس العدل والحرية في عهد السلطان عبد المجيد. انظر: أحمد بن أبي الضياف، المصدر السابق، ج4، ص37 .

ووصل الأمر بتهديد القنصل الإنجليزي، بأن الأسطول البريطاني في مالطة مستعد للتدخل عندما يطلب منه ذلك، إضافة إلى الأسطول الفرنسي الذي هو بتونس، هذا ما جعل الباي يعمل على إيجاد حل للقضية التي حكم فيها بإعدام اليهودي[1].

وهنا يقول ابن أبي الضياف: " وأمرني بإنشاء مكتوب عهد الأمان بمحضر الجماعة، فقلت له: «إن الأمر ثقيل يضعف مثني على حمله، والليلة نكتبه ومن الغد يحضر هذا الجمع للتأمل فيه، حتى يكون مشوبا للجميع» ومن الغد حضروا، وقرأته عليهم مرارا، فزادوا في معانيه ونقصوا، واطلع عليه قنصل الفرنسيين وقنص الإنجليز فاستحسناه"[2].

وفي موكب حضر فيه ممثلو الدول الأوربية، وكبار رجال الدولة وأعيانها، قرء نص عهد الأمان[3] في 20 محرم 1274هـ/10 ديسمبر 1857م، وأقسم الباي على العمل به[4] .

إن صدور عهد الأمان في وسط هذه الظروف والملابسات، وإن دلت على شيء وإنما تدل على زيادة التدخل من طرف الدول الأوربية في سياسة تونس الداخلية، كما عمل الأجانب بهذا على كسب العديد من الأمور لصالحهم، كمساواتهم بالوطنيين في حقوق الملكية، وفي حق العمل والتقاضي، وغير ذلك بفضل عهد الأمان[5].

كما أحدث عام 1274هـ/1858م مجلسا بلديا بتونس لتنظيم شؤون المدينة وإصلاح طرقاتها وإنارتها[6].

---

(1) –أحمد بن أبي الضياف ، المصدر السابق ،ج4، ص116 .

(2) –نفسه، ص240 .

(3) –أنظر الملحق رقم (1): وثيقة عهد الأمان .

(4) –نفسه، ص240 .

(5) –محمد بيرم الخامس، المصدر السابق، ج2، ص ص 43-50 .

(6) –حسن حسني عبد الوهاب، المرجع السابق، ص207 .

وفي ظل هذه الظروف جاء إلى تونس مهندس فرنسي كولان، في ذي الحجة 1275هـ/جولية1859م والذي كان متآمرا مع ليون روش من أجل جلب ماء زغوان[1]، حيث أن هذا الأخير كان يتردد على الباي من أجل جلب هـذا المـاء، وكان يحمل للباي هذا الفعل، حتى اقتنع الباي بذلك، فجمع رجال دولته وقص عليهم ذلك، فأنكروا عليه إلا أنه بقي مصرا على رأيه، بحيث يقول ابن أبي الضياف:" ولما خرجنا ضرب بيده على كتفي، وقال لي: إن شاء الله يصل هذا الماء لتونس وتطلب الشراء منه ولا نبيعه لك، فأمنت على دعائه "[2].

وحسب رأيي يبدوا أن أموال البلاد قد ذهبت في هذه المشاريع، حيث نلاحظ أن بسبب هذا الماء تدهورت أوضاع البلاد، وعم الخراب والفساد.

وفي هذه الفترة توفي الباي محمد صفر 1276هـ/ سبتمبر 1859م[3].

---

[1] -جبل زغوان: بين تونس والقيروان، وفيه عمارات كثيرة، ومياه جارية، وفيع من الحصون حصن الجوزات، وحصن تيفاف، وحصن القيطنة، ودار إسماعيل، ودار الدواب، وكل هذه البلاد كان يعمرها القبائل من البربر وهم أهل هذه الناحية وهم في خصب ولهم في تحديد المغرب برا وبحرا وأسماء البلدان وخواصها. انظر: محمود مقديش: نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار، ط1، تح علي الزواوي، محمد محفوظ، م 1، د الغرب الإسلامي، لبنان، 1988م، ص ص 126-127:
-جبل زغوان: وهو أعلى الجبال يبلغ ارتفاعه نحو 1300متر. انظر: محمد مخلوف: شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، ط1، ج4، تح عبد المجيد خيالي، د الكتب العلمية، لبنان، 1414هـ/2003م، ص209 .

[2] أحمد بن أبي الضياف، المصدر السابق، ج4، ص ص 261-263 .

[3] - نفسه ، ص264 .

المبحث الأول: فترة حكم محمد الصادق باي

المطلب الأول: الأوضاع السياسية

المطلب الثاني: الأوضاع الاقتصادية

المطلب الثالث: الاوضاع الاجتماعية

1-الأوضاع السياسية:

-المولى المشير محمد صادق باشا باي (1229-1299هـ/1812-1882م)

هو المشير أبو الفداء محمد الصادق بن حسين بن محمود بن محمد الرشيد بن حسين بن علي التركي، وهو ثاني عشر ملوك آل بيته العظام، ولد في 12 رجب 1229هـ/1812م، ولازم السفر بالأمحال مدة دولة أخيه حتى وفاة محمد باي

وتمت بيعته في صفر 1276هـ/1859م وأبقى رجال دولة أخيه على مناصبهم[1]، وقد عبر الصادق باي يوم بيعته عن التزامه بقواعد عهد الأمان، حيث إنه قال: «إني أقبل البيعة من الأعيان الحاضرين على مقتضى ما وقع الالتزام به من المشير المقدس أخينا المشير سيدي محمد باشا باي، وهو عهد الأمان لسائر السكان على الأعراض والأموال والأبدان وما حوا من القواعد اللازمة والأركان »[2] .

وقد ذهب الصادق باي إلى الجزائر، عندما علم بقدوم إمبراطور فرنسا نابليون الثالث، وذلك في صفر 1277هـ/1860م، من أجل المصلحة السياسية[3].

كما عمل الصادق باي على تنظيم المجالس القانونية، ووضعت المجالس على الترتيب التالي: المجلس الأكبر له رئيسان مصطفى صاحب الطابع، ومصطفى خزندار و كاهيته خير الدين، والمجلس الاعتيادي رئيسه محمد خزندار وكاهيته حسونة بن أحمد الحداد الأندلسي، ومجلس التحقيق رئيسه صاحب الطابع إسماعيل السني وكاهيته الشيخ محمد شاهد، ومجلس الجنايات رئيسه فرحات آغا الكاف، وكاهيته الشيخ صالح النيفر.

---

[1] السنوسي: المصدر السابق، ص ص 159-160 .

[2] محمد العياري: سياسة الصادق باي من خلال إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، الملتقى الثالث، سليانة، أيام 25،26،27 مارس 1983م، ص ص 04-05 .

[3] السنوسي، المصدر السابق، ص160 .

ومن بين الإصلاحات التي قام بها الصادق باي، نجده قد عمل على تقنين عهد الأمان وإنشاء المجالس الأهلية، للفصل في القضايا والمجلس الأعلى من ستين عضو لإبداء الرأي في المسائل السياسية والاقتصادية[1] وقد بدأت هذه المجالس نشاطها منذ أفريل 1278هـ/1861م، فالباي قد تلقى تهنئة من الإمبراطور نابليون الثالث على هذه الإصلاحات، وإن كانت فرنسا وايطاليا بالذات قد رحبتا بهذه التشريعات التي كلفت الأجانب حق ملكية العقارات وممارسة الحرف مما أدى إلى تدفق المهاجرين الأجانب من أصحاب المصارف والمتاجر، لكن كان هناك اعتراض على عدم منح رعايا هذه الدول الامتيازات التي أقرتها الدولة العثمانية[2]، وبعدها أصدر الصادق باي معروض المجلس الأكبر 10 شوال 1280هـ/1863م[3] ومفاده مضاعفة المجبى إلى 72 ريالا على عموم الأفراد، هذا ما زاد الطين بلة، وهو ما تمثل في ثورة بن غداهم[4]. لقد شهدت سنة 1281هـ/1864م ثورة في البلاد التونسية، بزعامة علي بن غداهم[5]،

ولا شك في أن مضاعفة المجبى لم يكن السبب الوحيد وراء هذه الثورة[6]إضافة إلى تعسف العمال والحكام في الأقاليم، والثراء الفاحش للمماليك، وكذلك بطء سير العدالة، وقلق الجنود لتخلف مراتبهم، والتبذير في النفقات، كما لا ننسى الحالة الاقتصادية الشديدة، إضافة إلى غضب الشعب من المنح التي كانت تمنح للقناصل الأوربيين[7]، والتطورات الأوربية التي أدخل على الشعب

---

(1) – شوقي عطا الله الجمل، المرجع السابق، ص118 .

(2) –ح ح عبد الوهاب، المرجع السابق، ص209 .

(3) –أنظر الملحق رقم (2): صورة الصادق باي .

(4) – السنوسي، المصدر السابق، ص161 .

(5) –علي بن غداهم: رجل من ماجر يحسن القراءة والكتابة، والظاهر أن ذلك حصل له بفضل التأييد الذي حظي به من طرف طريقة التيجانية التي لها مكانة كبيرة في تلك الجهة، وبلغ علي بن غداهم سن الخمسين عاما في ذلك العهد، وكان أبوه قاضيا بماجر، ويقال أنه مات مسموما من يد عامل الجهة الغربي البكوش السهيلي، وتلقى علي بن غداهم نصيب من التعليم بجامع الزيتونة، ثم استكتبه العربي البكوش وقبيلة ماجر هي أول قبيلة أطلقت عليه لقب باي الشعب وما لبث أن أمتد نفوذه للقبائل المجاورة كأولاد عيار والفراشيش و ونيفة حتى صار الزعيم الأعلى للثوار. انظر: جان غانياج: ثورة على بن غداهم 1864م، تر لجنة من كتابة الدولة للشؤون الثقافية، د التونسية، 1965م، ص ص11-16.

(6) – السنوسي، المصدر السابق، ص161 .

(7) –شوقي عطا الله الجمل، المرجع السابق، ص120 .

التونسي، جعلت أهل البادية يخافون من كل مستحدث جديد، وماء زغوان الذي يستحسنه التونسيون[1]، إذن فكل شيء قد تغير في عادات ذلك الشعب الذي ألف الاستقرار، وهذا ما يفسره ذلك الغضب .

وقد كتب علي بن غداهم إلى محمد الصادق باي في 17 صفر 1281هـ/22 يوليو1864م، يشرح له فيها عن نهي الظلم عن المظلوم[2].

انطلقت الثورة من الأعراض وامتدت للجريد ومنطقة القيروان وانتشرت غربي الكاف، ووصلت في شهر أفريل ضفاف وادي مجردة[3].

وقد تولى قيادة الثورة في جلاص رجل هو السبوعي بن محمد السبوعي وفي بطن رياح تولى زعامتها ابن دحر، وفي غرب البلاد على بن غداهم، وقد حصلت معارك عنيفة والحكومة تتظاهر بعدم الانزعاج .

ولتهدئة روع البلاد أصدر الباي منشورا مؤرخا في 1281هـ/أفريل 1864م، يتضمن إلغاء مضاعفة المجبى، وكذلك إصلاح العدالة، ووقف العمل مؤقتا بما جاء به عهد الأمان، كما أرسلت الحكومات الإنجليزية والفرنسية والإيطالية سفنا حربية للإيالة التونسية، استجابة لنداء قناصلها لحماية رعاياها[4]، وقد ازداد التعصب الديني والكراهية للأجانب، خاصة بعد قدوم البواخر الحربية الحربية الأوربية[5]، هذا ما أدى بالباي محمد الصادق إلى التظاهر بالعودة إلى ما كانت عليه الضرائب، والتي كانت سوى حيلة منه لإخضاع الثوار، لكن هذا لم يقنع الثوار فطالبوا: بمراجعة نظام الضراب كله، وعزل العمال ومحاسبتهم عما اقترفوه في حق الأهالي، وتعديل نضام القضاء، لما فيه من تطويل في الإجراءات وإرهاق للرعية، كما أنهم طالبوا بتعديل الدستور فكان شعارهم: «كفانا مجبى، ومماليك ودستورا » وانتهى الأمر بالقبض على علي بن غداهم وزج به في

---

[1]-جان غانياج، المرجع السابق، ص ص11-14 .

[2] -أنظر الملحق (3): نص الرسالة .

[3] -أنظر الملحق رقم (4): خريطة مسار الحملة .

[4] -جان غانياج، المرجع السابق، ص ص 20-26 .

[5] -نفسه ، ص30

السجن، وبقي به حتى توفي في 1284هـ/أكتوبر 1867م[1]، ومن هذا نرى أن الأوضاع التونسية قد ازدادت في التدهور، إضافة إلى الأطماع الأجنبية وتدخلها في الأمور للبلاد، وعليه فإن الثورة كانت واضحة المطالب والأهداف، وكانت دوافعها سياسية اقتصادية واجتماعية، وكانت قوية شاركت فيها أغلبية الشعب الذي كان يعاني من المظالم، هذا وإن دل على شيء وإنما يدل على الوعي الشعبي، لقد وزرع جناب المشير نيشانا جديدا خصة بمن باشروا هذه الحرب، فقلد لأخيه أمير المحلة[2] نيشانا ذهبيا وأعطى منه لأصحاب الرتب العالية، ثم وزع النيشان الفضي على سائر العسكر[3]، وعمل محمد الصادق باي بعدها بإصلاح الأبراج، وبنى قنطرة وادي الزرقاء، وأتم بناء قشتلة القيروان[4]، وحسن قشتلة الطبجية ووقع استبدال مدافع سائر الأبراج من نوع النحاس بمدافع أخرى، وأحسن الصنع مع الأهالي[5]، عمل الصادق باي على تغيير إدارة الدولة، وجعل

---

(1) -شوقي عطا الله الجمل، المرجع السابق، ص ص121-123 .

(2)-المحلة: بمعنى الجيش الذي يخرج تحت قيادة قائد يسير به، وتخرج المحلة إما لجباية الأموال أو للتهدئة وباي الأمحال هو ولي العهد، كان الوالي باشا هو المتصرف في أحكام البلد وله السلطة العليا، ولفظ الباشا مركب من (با) أي قدم ومن (شا) أي الملك ويراد منة السيد المولى والوالي والوزير، الفرق بين الباي الأمير وباي المحلة هو: الأول يعني باي الكرسي، والثاني يعني ولي العهد، أنظر: السنوسي، المصدر السابق، ص162 .

(3) -نفسه ، ص 167 .

(4) -للعائلة الحسينية عناية بالقيروان لأن ثكنة القيروان ، والقيروان لفظ فارسي دخل العربية ومعناها، محط الجيش ومناخ القافلة وموضع الجيش وموضع إجماع الناس في الحرب، انظر: شوقي عطا الله الجمل، المرجع السابق، ص07 .

(5) -السنوسي، المصدر السابق، ص168 .

الوزارة الكبرى التي كانت تحت يد مصطفى خزندار[1].مركبة من وزارة المال ووزارة العمالة ووزارة الخارجية، وكان للوزارة الكبرى أربعة أقسام، القسم الأول لسياسة المملكة تحت رئاسة مستشار هو الشيخ محمد العزيز بوعتور باش كاتب، القسم الثاني للواردين من المتوظفين، تحت رئاسة حسين، القسم الثالث للنوازل الشخصية تحت رئاسة الشيخ أحمد بن أبي الضياف، والقسم الرابع لأمور الخارجية تحت رئاسة النصراني فليكس راف. شوال 1287هـ/1870م .

كما أقام محمد الصادق باي خزنة مكاتيب الدولة ورسومها[2]، إضافة إلى إقامة الكثير من المجالس والقوانين، كمجلس النظافة بمقتضى قانون تألف من 19 فصلا، صدر في ربيع الأول 1289هـ/1872م، وعمل على تحسين الطرقات بقانون مؤرخ في ربيع الأول 1290هـ/1873م[3].

ولكن ورغم كل هذه الأعمال التي قام بها محمد الصادق باي، إلا أنه لم يتمكن من السيطرة على وضع البلاد، وذلك راجع إلى عدة أمور:

---

[1] -مصطفى خزندار: هو يوناني الأصل ولد سنة 1817م، وبيع صغيرا في أسواق استانبول مع أخ له ثم بيع ثانية إلى بايات تونس، وتربى في قصور الأسرة الحسينية، تعلم الإسلام وعلوم الدين صحبة أحمد باي، وبمجرد أن تولى هذا الأخير الحكم اختاره إلى جانبه لمنصب المالية والداخلية، وزوجه أخته، وبقي في منصبه في عهد محمد باي، الذي أضاف إليه الوزارة الكبرى والخارجية، إلا أن دوره الواسع والخطير برز في عهد الصادق باي، ففتح البلاد لسياسة القروض الأجنبية، بعد فراغ الخزينة، وقد تميزت سياسة هذا الوزير بالنفوذ المطلق في سياسة الدولة، كان هذا يساعد البايات على الإسراف والقسوة في جباية الضرائب، ومن أهم صفاته أنه كان شرها على المال، وبجمعه بكل السبل، وانتهى به الأمر بالمحاسبة بعد 36 سنة قضاها في القصر، على يد صهره خير الدين الذي حل محله في الوزارة الكبرى وصودرت أمواله .انظر: الشيباني بنبلغيث : الجيش في عهد محمد الصادق باي (1859-1882)، تق عبد الجليل التميمي، زغوان-صفاقس، 1995م، ص68 .

[2] -ويعرف بقسم خزانة المكاتب العامة، وظيفة هذا القسم حفظ أوراق الدولة، البحث عنها، ترتيبها، جمع الجرائد، جمع المطبوعات التي تظهر وقتئذ بالمملكة، وكان من رؤسائها محمد القروي، صاحب التعليقات على اتحاف أهل الزمان، وكانت وفاته سنة 1359هـ، السنوسي، المصدر السابق، ص170.

[3] نفسه، ص171 .

-رجال الحكومة لم يكونوا من أبناء البلاد الأصليين، لذلك لم تكن لهم أية رابطة عاطفية أو تاريخية تربطهم بالبلاد التونسية[1].

إضافة إلى الديون التي تراكمت على البلاد التونسية، ومع أن الشعب كان يعرف غريمه، ألا و هو الوزير الأول مصطفى خزندار، إلا أنه لم يستطع فعل شيء، وذلك لضعف الباي وتخاذله اتجاه وزيره.

ولم يعمل مصطفى خزندار بتشجيع الزراعة والصناعة وتخفيض الضرائب، بل زاد الطين بلة من خلال الاقتراض، هذا ما جعل الدولة على حافة الإفلاس[2].

وفي ظل هذه الظروف تم تكوين مجلس حكومي للميزانية في شوال 1284هـ/فيفري 1868م، تحت أمر جماعة من أعيان الكتاب برئاسة محمد عبد العزيز بوعتور، بالتفاوض يومي الأحد والخميس، في تنقيح خرج الدولة ودخلها، في سرية، وأدخل القنصل الفرنسي كعضو في هذا المجلس ليحتج كل من قنصل الإنجليز وقنصل إيطاليا على ذلك، مع أن دين إيطاليا كثير أيضا[3].

وهنا خرجت فرنسا باقتراح يقتضي تشكيل لجنة مالية تضم ممثلين عن ثلاثة دول أوربية هي : فرنسا، إنجلترا، إيطاليا، وترأسها شخصية تونسية معروفة

---

[1] – سمير أبو حمدان: خير الدين التونسي، د الكتاب العلمي، بيروت . لبنان، 1413هـ/1992م، ص ص 22-23 .

[2] -نفسه ، ص25 .

[3] -أحمد بن أبي الضياف، المصدر السابق، ج6، ص ص 10-112 .

وصدر القرار بتشكيل لجنة الكمسيون المالي[1]، حيث ترأسها خير الدين[2].

الذي وجد نفسه أمام مشكلة الأوربيون الذين يريدون ديونهم، وعمل على تطهير الدولة من الأشخاص الفاسدين، حيث عزل الخزندار 1289.هـ/1873م لتصبح بعدها هو الوزير الأول، كما شجع الزراعة وقلص الضرائب، حيث أنه يطلع شخصيا على شكاوي الناس، وفي سياسة الخارجية اتبع أسلوب الحزم والحكمة مع ممثلي الدول الأوربية[3].

لكن رغم ما حققه خير الدين في مختلف الميادين من نجاح يشهد له، إلا أنه لم يستطع الصمود طويلا أمام دسائس والمؤامرات التي كانت تدبر له خاصة من مصطفى بن اسماعيل[4][5]، إضافة إلى المخابرات الفرنسية المتسربة من الجزائر، التي لا نستبعد أنها كانت لها يد في القضاء على خير الدين[6].

---

[1] -أنظر الملحق رقم (5): الكمسيون المالي .

[2] -خير الدين: هو من المماليك من أصل شركسي، ولد 1822م، نشأ باستانبول في بيت أحد الباشوات الذي اشتراه وقدمه إلى باي تونس، وعمره 17 سنة، وتربى في قصر أحمد باي، تولى قيادة فرقة الخيالة برتبة رائد 1840م، وأيضا رتبة آلاي أميني قائد أول وأصبح عقيد سنة 1850م، وأمير لواء الخيالة، ومن وظائفه السياسة كلف بالدفاع عن أموال الدولة في قضية محمود بن عياد، الذي هرب إلى فرنسا واحتمى بها، وهنا رقي إلى أمير الأمراء، وعينه محمد باي 1857م وزير للبحر، من بين الأعضاء الذين شرحوا عهد الأمان، وعندما أحدثت المجالس سميت كاهية المجلس الأكبر، ثم رئيسا له 1861م، وبعد الثورة 1864م اعتزل الساسة وتفرغ لكتابة أفكار الإصلاحية في مؤلفه" أقوم المماليك، ثم عاد إلى السياسة وترأس الكمسيون المالي، ثم تولى الوزارة الكبرى 1873م، الشباني بنبلغيث ، المرجع السابق، ص ص 69-70، ثم تم تعيينه صدرا أعظم ثم عزله لتعارض سياسته مع سياسة عبد الحميد، إلا أن توفي بالأستانة 1879م عن عمر يناهز 70 عاما، سمير أبو حمدان، المرجع السابق، ص 57 .

[3] -سمير أبو حمدان ، المرجع السابق ، ص 42.

[4]-مصطفى ابن اسماعيل: أصله غير معروف، عرف بهذا اللقب نسبة إلى والده، تربى عند أحد موظفي الحكومة، يدعى زهيرا، تربى مع المماليك العاملين بالقصر، وانجذب إليه الصادق باي وقربه منه، حظي برتبة بينباشي (رائد)، ثم أمير الاني (عقيد)، ووصل إلى أمير أمراء، وفي 1871م حظي برتبة فريق، وفي 1872م أصبح عامل الوطن القبلي، ثم وزير للبحر، ثم عامل الساحل، وفي 1878م تولى الوزارة الكبرى التي بقي فيها حتى فرض الحماية، وقد عرف بحب المال وجمعه بكل الطرق، الشيباني بنبلغيث، المرجع السابق، ص ص 72-73 .

[5] - ح ح عبد الوهاب ، المرجع السابق، ص2013.

[6] عبد الكريم غلاب : قراءة جديدة في تاريخ المغرب العربي،ط1،ج3،د الغرب الإسلامي ،بيروت لبنان ،1426هـ/2005م،ص ص 90_91.

ويبدوا من هذا أنه لو بقي خير الدين في الوزارة لعمل على تخليص الأمة التونسية من الأوضاع التي أصبحت عليها.

-لقد كانت أحوال البلاد التونسية في ضعف كبير في السنوات الأخيرة من فترة حكم أحمد باي، وبداية حكم الصادق باي خاصة في الجانب المالي، كما كان للتدخل الأجنبي نصيب في ذلك بتدخلها في مصالحها الداخلية، وبضغط منها بإصدار عهد الأمان الذي يمثل فرصة ثمينة لصالحها والذي تم الاتفاق عليه، فاستبشر الناس خيرا فيه ورأوه قادرا على تحقيق الأمن والأمان في حياة الناس من خلال البنود التي يحملها، ففي ظاهرها إصلاح وفي باطنها مصلحة للقوى الأوربية .

-فبتقلد محمد الصادق منصب الحكم حاول أن يقوم ببعض الاصلاحات، خاصة الدستورية منها، بعد أن وجد عهد الأمان جاهزا، ففتح عهده بالتوقيع عليه والقسم عليه إضافة إلى طموحه في تحسين الوضع المالي للبلاد، فكان من المتوقع أن يحسن الوضع المالي للبلاد في ظل التدهور الذي تعاني منه تونس، والتي كانت تحت تأثير القوى الأوربية، ولكن نفس الصادق باي الميالة إلى إهمال شؤون الحكم وفقدانه الطموح جعل الأحلام تتبخر إضافة إلى سيطرة بعض الوزراء في تسيير الأمور مثل مصطفى بن اسماعيل ومصطفى خزنه دار فهذا ما استكمل الوضع سوءا، فانتشر العناد السياسي والمالي وانعدام الإصلاح[1] .

ومما تجب الإشارة إليه أن للوزراء السابق ذكرهم أن لهم التأثير المباشر في توجيه سياسة الدولة المالية، نظرا أن الوزارة الكبرى تشرف على بقية الوزارات ويتبع نظرها وزارتي البحر والحرب، فمنهم من تولى وزارتين وأكثر في وقت واحد إضافة إلى جانب بعض المناصب الأخرى غير الوزارية، كالمجالس القيادات، ضف إلى ذلك شخصية محمد الصادق باي الذي بقي بعيدا عن الحكم من خلال منحه الثقة الزائدة في وزرائه. من بينهم:[2]

[1] أحمد بن أبي الضياف ،المصر السابق ،ج5 ، ص 70

[2] نفسه ، ص 72

مصطفى خزنه دار الذي برز دوره الخطير في عهد الصادق باي، حيث فتح البلاد لسياسة القروض الأجنبية بعد فراغ الخزينة وإفلاسها، إضافة إلى الزيادة في الإسراف والقسوة في جباية الضرائب، واعتبر المتسبب في التدهور والوقوع في حبل الديون، ونتيجة لتصرفاته استقال خير الدين من وزارة البحر، ومصطفى آغا من وزارة الحرب، وكذلك حسين رستم من مناصبها. وفي آخر مطافه تمت محاسبته بعد ست وثلاثين سنة قضاها في قصر باردو، وكانت محاسبته على يد صهره خير الدين حل محله في الوزارة وصودرت أمواله.[1]

وفي هذا المجال اتبع الوزير مصطفى بن اسماعيل هذه الصفة، فانجذب به محمد الصادق باي بع دخوله قصر باردو، فسلم الرتب السياسية والوظائف السامية وحظي برتبة بيباشي، ثم أمير ألاي، ثم أمير لواء، وفي سنة 1871م أسند إليه أعلى رتبة عسكرية وهي رتبة فريق، وسمي وزيرا للبحر، ووصل سنة 1878م إلى قمة وظائفه وهي الوزارة الكبرى التي بقي فيها إلى أن أقيل منها بعد فرض الحماية والذي عرف بحب المال وجمع ثروة طائلة، قدرت بعد معاهدة باردو بثلاثين مليون ريال، ودليل هذا هناك شاهد على ترفه وفقدان محمد الصادق باي على جميع صلاحيته ومسؤولياته في الدولة واتجاه شعبه، وهو أن عندما ازداد مولود لمصطفى بن اسماعيل قبل احتلال فرنسا لتونس بعام واحد سماه محمد العزيز، أرسل رسالة إلى وزير الحرب يعلمه بزيادة المولود، وأنه صدر له الإذن من الباي بإثباته برتبة بيباشي، ويبدو من خلال هذا أن الباي لم يكن على علم بمضمون هذه الرسالة، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على إهمال الكبير من طرف محمد الصادق باي بقرارات الدولة الهامة

لقد كان وراء سوء الأوضاع المالية للبلاد التونسية أسباب عديدة، أنهدت الوضع الداخلي وهيأت لطرق الاحتيال والاختلاس والمؤامرات في عهد محمد الصادق باي، فعلى الرغم من أن محمد باي لم يترك بالخزينة إلا خمسة ملايين ريال فإنه لم يترك دينا على الدولة، إضافة إلى وجود مواد ثابتة للخزينة تدعى الإعانة أو المجبى والتي أحدثها بشكل رسمي على كل فرد قادر على دفع

1)الشيباني بنبلغيث :المرجع السابق ،ص75

ستة وثلاثين ريال في السنة، أما حب الصادق باي للترف ووجود الوزير الأكبر مصطفى خزنه دار ومن معه، جعله يتوسع في الإنفاق، حتى فرغت الخزينة وضاقت به السبل فوقع في فخ الديون التي ترصدت لها البنوك الأجنبية، وجراء هذا لم يكتفي الباي بالضريبة المفروضة، لأنها عجزت عن سداد مصاريفه المرهقة، فضاعفها دفعة واحدة الأمر الذي نجم عنه ثورة، 1864م،[1] والتي كادت أن تسفك بعرشه، كما تنوعت أشكال الصرف المرهقة للخزينة، من ذلك الزيادة في التوليات والوظائف دون أن يكون لها لزوم، ومن وجوه الصرف أيضا ما اشتهر به الصادق باي، من ولع مفرط في منح الأوسمة من لمن هب ودب ، سواء لوزرائه أو غيرهم من الرعايا الأجانب.

وكانت هذه الأوسمة تكلف الدولة أموالا طائلة، حيث بلغت قيمة الوسام الذي كان يلبسه خمسين ألف ريال، علاوة على هذا أحدث وسام عهد الأمان سنة 1859م، ووسام العهد المرجع سنة 1874م .

من خلال هذه الأمثلة يتضح لنا أن الدولة التونسية تعرضت لمآزق مالية كبيرة تسبب فيها مغامرين ومحتالين من الداخل والخارج، فكانت البلاد أسوء مات يكون عليه الحال على الصعيدين، وكان ذلك سببا في جعل البلاد قبل الاحتلال بين مخالب الحكومة الفرنسية [2] .،للتطور العسكري الدور البالغ الأهمية في ازدهار أي دولة، إذ يعد بمثابة العمود الفقري الذي ترتكز عليه تلك الدول، من خلال حسن التكوين والتنظيم وهيكلة الجيش ماديا ومعنويا، هذا ما سعت إلى تحقيقه الدولة التونسية منذ بداية العصر الحسيني، حيث تولى عن تحقيق هذا المسعى عدة بايات بداية من أحمد باي الذي حاول تطوير الجيش التونسي وطموحه الواسع في مواكبة تطور الجيش لدى الدول الأوربية، وأهم ما قام به من انجاز هو احداث المدرسة[3]،الحربية الذي

[1] الشيباني بنبلغيث ، المرجع السابق ، ص 70

[2] Jean, Ganiage, la crise des funances tunisiennes et l'ascension des juifs de tunis(1860-1880) in revnue africaine,1955p170

[3] -الشيباني بنبلغيث: المرجع السابق ،ص 100.

كان تأسيسها سنة 1840م، في باردو والتي تعد جانب علمي لابد منه لتكوين جيش حديث، حيث كانت في نفس الوقت بداية التعرف على طرق التعليم الحربية في أوربا المتقدمة، وهدفها تكون ضباط على أسس علمية[1] حيث بدأت عملها ب 50 تلميذا اختيروا من بين صغار المماليك وبعض أبناء البلاد، يتعلمون فنون الحرب نظريا وتطبيقا وبعض علوم الدين واللغات، الفرنسية، الإيطالية وكان مديرها الأول المشرف الإيطالي كاليقاريس الذي كان يدير مدرسة حربية بإستنبول وقد بقي مديرا لها مدة 13 سنة، ثم خلفه الضابط الفرنسي كمبنون[2].

إلا أنه ورغم طول المدة التي عملت فيها المدرسة، فإن نتائجها كانت محدودة لأن عدد الضباط الذين اشتهروا في الميدان العسكري والسياسي وصلوا إلى مراكز عليا قياسا بزمن قليل منهم حسن ورستم، ومع هذا فإن المدرسة كانت هي الأثر البارز لإصلاحات أحمد باي، وبالرغم من توقفها في آخر أيامه، فقد كتب لها أن تعود ببعد وفاته ولم تضعف عن القيام بواجباتها التي رسمت لها إلا في [3]عهد الصادق باي، الذي انظم العمل بها بفتح أبوابها مرة كل عام بقبول 20 تلميذا جدد ولايتم تحولهم إلا بعد امتحان في القراءة والكتابة من طرف أربع ضباط، والهدف منه تخريج ثلثي الضباط، ويتعلمون بعض اللوم الأخرى، علاوة على فنون الحرب، القرآن الكريم، اللغة الفرنسية، علم النحو، الجغرافيا، علم الجبر، علم المساحة[4].

---

[1]- 1858م كلفت لجنة مكونة من 4 أعضاء برأسهم خير الدين، لإعداد قانون للتجنيد في تونس وأعلن هذا القانون في 1860م، صدر في سنة أبواب واختير له عنوان جذاب هو المصباح المفسر في إثبات دخول العسكر، والتجنيد هو إلزام المواطنين بالخدمة العسكرية، واستخدمت بذلك طريقة القرعة بين السن القانونية 18 سنة،انظر: الشيباني بنبلغيث ،المرجع السابق، ص100.

[2] -كمبنون: ضابط فرنسي الحق بالبعثة الفرنسية العسكرية بتونس في 1850م كلف بإدارة مكتب الحرب شارك في حرب القرم، عاد إلى تونس في 1862م برتبة عقيد، ثم عين من جديد لإدارة المدرسة .انظر: نفسه ،ص81.

[3]-الشيباني بنبلغيث، المرجع السابق، ص 81 .

[4]-نفسه، ص 101.

وبهذا فلقد أنبتت المدرسة الحربية في جعبتها ضبط شهدت لهم الدولة التونسية مثل الرائد محمد بالحاج عمر الذي أصبح ملحقا بوزارة الحرب، وكان مترجما لعدة كتب عسكرية والعربي زروق الذي أصبح رئيسا للمجلس البلدي والمدرسة الصادقية ثم محمد القروي الذي تولى بعض المناصب الإدارية الهامة منها إدارة المدرسة الصادقية .

لكن هذه المدرسة تعرضت إلى مصاعب منها موت مديرها دي تافارن، إضافة إلى عدم حضور الضباط المكلفين بمباشرة العمل التطبيقي، وبتعيين الرائد كمبينون إلا أنه لم يعيد المدرسة إلى النظام المعتاد عليه، فأصطدم مع الوزير الأكبر مصطفى خزندار و أقيل من مهامه ، و انسحب معه المعلمون الفرنسيون بسبب تأخر أجورهم ، فألغيت المدرسة لآن ميزانيتها ارتفعت إلى 50 ألف ريال[1].

2-الأوضاع الاقتصادية :

إن للأوضاع الاقتصادية وقع كبير في مسار أي أمة وترتيبها بين الأمم، حيث يعد الاقتصاد الركيزة الأساسية لتقدم الدول وتطورها، وقد عرف الاقتصاد التونسي خاصة في القرن 19م، تقهقرا كبيرا وذلك راجع لعدة أمور منها:

إن المناخ والتضاريس ونوعية التربة، تعد من العوامل المهمة للنشاط الزراعي[2]حيث نجد في تونس المنطقة الشمالية والوسطى من بين أهم المناطق الزراعية خاصة في جبالها[3] والتي تكون صالحة للزراعة المحلية والأجنبية عكس الناحية الجنوبية والتي كانت أقل استغلالا[4]

لقد شهد الوضع الاقتصادي التونسي عدة تقلبات خاصة في القرن 19م، حيث عرف فترات من الرخاء وأخرى من الشدة، إذ نجد فترة حكم أحمد باي عرفت نهوض القطاع الاقتصادي،

---

[1]-الشيباني بنبلغيث، المرجع السابق ، ص 102 .

[2]-أنظر الملحق رقم (6): الخريطة الطبيعية في تونس .

[3]-محمد بيرم الخامس، المصدر السابق، ص 334 .

[4]-عثمان العكاك: التقاليد والعادات الشعبية ، الشركة القومية للنشر والتوزيع، تونس، 1963م،ص98 .

خاصة في المجال الزراعي والصناعي وتنوع المحاصيل، وتشجيع الصناعة المحلية[1] ليكون هناك تدهور في الوضع الاقتصادي التونسي، خاصة بعد اشتراكها فب حرب القرم[2]

بعدها يأتي محمد باي الذي عمل على مواجهة الوضع التي كانت تشكو منه البلاد ولم يلجأ لحل الأزمة المالية إلى سياسة الاستدانة، أو إلى إرهاق الأهالي بالضرائب، بل إنه أسقط ما كان على الأهالي من ضرائب، وعوضها بضريبة أخرى تعرف بالمجبى يدفعها القادرون من سكان المملكة، وقدرها 36 ريالا في السنة، لذلك فهو أنقذ البلاد من هاوية[3] .

إن للاقتصاد اتصال مباشر بنظام الملكية العقارية، حيث كان هذا النظام بتونس غامضا، كما عملت الدولة على نزع ملكية السكان، ومن بين الأراضي نجد: الأراضي الموات: وهي الأراضي التي لم تزرع بأية صورة، وفي الشريعة من أحيا أرضا ملكها، ونظرا للنزاع بين أكثر من مالك لهذه الأراضي، عملت الحكومة بخضوع هذه الأراضي لسلطتها، تجنبا للنزاعات، وفي سنة 1871م،عندما قلت الأراضي الزراعية عمل الباي على إلحاق الأراضي الموات بسلطته، كما أن الذين أحيوا أرضا بورا أصبحوا مالكين لها، هذا ما دفع بهم إلى تسوية وضعهم إداريا وفقا لمر18 كانون الأول 1875م .

مصادرة أملاك القبائل: حيث نص مرسوم 14 كانون الثاني 1901م على الاستيلاء على جزء منها لصالح الاستعمار .

أراضي الحبوس: مثل بناء المؤسسات الدينية والمكتبات والمستشفيات وبيوت العجزة حيث أن الحكومة اهتمت بهذه المؤسسات الخيرية ففي عام 1874م، قام الوزير خير الدين بوضع إدارة للحبوس، كما عملت الدولة بأخذ أراضي الحبوس[4] .

---

[1]-محمد بيرم الخامس، المصدر السابق، ص ص 42-47 .

[2]-شوقي عطا الله الجمل، المرجع السابق، ص 116 .

[3]-ابن أبي الضياف، المصدر السابق، ج4، ص ص 245-248 .

[4]-عبد العزيز الثعالبي: تونس الشهيدة، ط1 ، تر تق سامي الجندي، د القدس، بيروت لبنان، 1997، ص 97-10

أراضي الحبوس الخاصة: هي وقف على سلالة الموصي، وأحيانا لبعض أقربائه أو لغرباء عنه، وإذا اكتمل نسل الوراثيين انتقل الملك إلى عمل خيري، حيث يعادل هذا النوع ثلث التراب التونسي[1]

يعتمد الاقتصاد على ثلاثة ركائز أساسية هي الزراعة والصناعة والتجارة، ومن أعظم أسباب الثورة نمو الفلاحة، فقد عرفت الزراعة التونسية اهتمام بزراعة الحبوب في المناطق الشمالية[2] كانت مساحة الأرض المزروعة بالحبوب 1200000 هكتار، ذات إنتاج وسطي بالقمح والشعير من 1600000 هكتار في فترة 160-1862م، وبعدها تدهور حال الزراعة، لتتجه الجهود إلى تشجيع زراعة الزيتون مقابل الإعفاء من الضرائب ل 15 سنة . فمساحة تونس هي 12.5 مليون هكتار، منها 09 ملايين زراعية، بين مساحات مزروعة وأخرى غير مزروعة[3] .

كما توجد هناك زراعة الخضر والفواكه وكذلك الأشجار المثمرة كالبرتقال والليمون والمشمش والعنب والتين وشجر الزيتون بنوعيه الصغير والكبير [4] .

إضافة إلى بعض الزراعات للاستهلاك الشخصي، كالحمص والعدس والذرة والشعير، كما أن سكان الجبال كانوا يستغلون الغابات مثل: غابة طرقة لاستخراج الأخشاب، كشجر الصفصاف، البلوط، الدردار، العرعار[5] ، كما نجد اهتمام الشعب التونسي بتربية الحيوانات وخاصة الفلاحين، كالبقر والماعز والكلاب والخيل والنسر والعقاب والإوز، البط، هذا فيما يخص الحيوانات الأليفة، أما الحيوانات الوحشية والتي توجد أغلبها في الناحية الغربية من البلاد مثل: الأسد والنمر ، وفي جهات الجريد والصحراء هناك الثعابين والعقارب، أما القيروان فهناك العناكب والنمل بأنواعه

---

[1] عبد العزيز الثعالبي ، المصدر السابق، ص ص114-115 .

[2] - محمد بيرم الخامس، المصدر السابق، ص ص 334 .

[3] -عبد العزيز الثعالبي: المصدر السابق، ص89 .

[4] -محمد بيرم الخامس، المصدر السابق، ص ص 335-336.

[5] -عثمان العكاك، المرجع السابق، ص 98.

وبصفة عامة إن تربية الحيوانات كانت منتشرة في الأرياف الجبلية[1]، لكن سياسة الحكام التي كانت تعمل على فرض الضراب للفلاحين على وقف نشاطهم، لعدم وجود الأمن[2] .

كما نجد أيضا إلى جانب الفلاحة، الصناعة والتي تعد من أهم مجالات الفعالية الاقتصادية، ومن بين أهم الصناعات نجد: صناعة الأصواف، النسيج والبسط والأغطية والتي لديها الآلاف من الصناع اليدويين، خاصة في جربا والجريد والساحل وتونس[3]، وكذلك صناعة الحرير والتطريز والخزف والسجاد والجلد والحلفاء، إذ أن الأسر التونسية كانت تنتج حاجياتها في المنازل، كما أن الدولة شجعت الحرف وأنشئت ورشات لذلك[4].

ومن بين الصناعات المعروفة بها البلاد نجد: صناعة الشاشية والتي ظهرت في الحكم الحفصي، لكن بشكل قليل، لتنتشر أكثر في العهد العثماني[5] .

حيث كانت الشاشية تصنع من الصوف، كما ظهرت الشاشية الإفرنجية مثل الشاشية التونسية، والتي كانت تستعمل من طرف أغلبية الشعب لرخـص ثمنها [6] .

وكذلك صناعة الحرير: فقد كان يعملها 800 عامل بتونس لوحدها[7] إذ كتنت تصنع مناديل مناديل من الحرير تغطي المرأة التونسية رأسها به إضافة إلى أحزمة الرجال والنساء

ومن بين الصناعات الأخرى في تونس نجد: صناعة السروج والتوشيح بالذهب والفضة والنحاس، والصياغة، والصناعة الفخارية إضافة إلى أن تونس كانت من أعظم أسواق الحجارة

---

[1] -محمد بيرم الخامس، المصدر السابق، ص ص 340-343 .

[2]-الهادي شريف: تاريخ تونس من عصور ما قبل التاريخ إلى الاستقلال، تع محمد الشاوش ومحمد عجية، د سرار للنشر، تونس، 1980م، ص 78 .

[3] -عبد العزيز الثعالبي، المرجع السابق، ص 91

[4] -عثمان عكاك: العلاقات بينتونس وايران عبر التاريخ، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، 1972م،ص182 .

[5] -أحمد بن أبي الضياف، المصدر السابق، ج2، ص 31 .

[6] -محمد بن عثمان الحشائشي: العادات والتقاليد التونسية الهدية أو الفوائد العلمية في العادات التونسية، ط1، دراسة وتح الجيلالي بن الحاج يحي، تق محمد البعلاوي، د سراس للنشر، تونس، 1994، ص 108 .

[7]-نفسه، ص 128 .

الكريمة[1] وصناعة النجارة وعصر الزيتون، إضافة إلى استخراج المعادن، كالرصاص والحديد والزنك والزئبق والفضة والذهب، هذا ما أدى لصناعة المفاتيح والأبواب والنوافذ وظهور معدن الكازتر ما مهد لصناعة زجاجية[2] .

ولقد عملت الدولة لحماية اقتصادها بسبب المنافسة من طرف الصناعات الأجنبية بوضع العديد من الأسواق حول الجامع الأعظم وسط المدينة، كسوق العطارين والذي نجد به عطور الياسمين والعنبر والحناء، والذي تم بناءه في القرن 13م[3] .

سوق القرانة: يصدر المنتجات الزراعية والحيوانية والصناعات التقليدية والمواد القادمة من الصحراء كالعاج والتبر والذهب، إضافة إلى الأغطية والحرير والأقمشة الرفيعة والتوابل والسكر، والتي كان يقوم بها المسلمون واليهود الذين هاجروا من شبه الجزيرة الأيبيرية في القرن 15م[4] .

سوق الترك: كتنت تباع الملابس التقليدية من جبة وسروال، والذي بدأ بالعمل في ق 17م[5] .

---

[1]-عبد العزيز الثعالبي: المرجع السابق، ص 91 .

[2] -ضيف شوقي: عصرالدول والإمارات ليبيا توس صقلية، د المعارف، النيل، القاهرة، 1992م، ص ص 147-148.

[3]-الحشاشي: المصدر السابق، ص 379 .

[4]- نفسه، ص 383 .

[5]- محمد بيرم الخامس، المصدر السابق، 713 .

أما فيما يخص التجارة، فنجد التجارة الداخلية والمتمثلة في الأسواق المنتشرة في المدن والأرياف، إذ أن القوافل كانت تربط بين مختلف الجهات ،ومبادلة السلع من إنتاج الناحية الشمالية والجنوبية. [1] ،زيادة على التجارة الخارجية التي نجد فيها التجارة البحرية في تونس، وهي التي تربط تونس والبلدان الاسلامية القريبة منها، والواقعة في الحوض الشرقي للبحر الأبيض المتوسط خاصة الموانئ التركية والمصرية، إذ تذهب محملة بالصادرات التونسية من الزيت والصابون والمنسوجات الصوفية[2] ، إضافة إلى تصدير الشاشية إلى سوريا والجزيرة العربية ومصر واليونان وطرابلس الغرب والجزائر، إضافة إلى صناعة الأحذية التونسية التي كانت في البلدان الإسلامية في حوض البحر الأبيض المتوسط[3]، إضافة إلى صناعة الحرير التي عرفت رواجا كبيرا خاصة في الجزائر والمغرب الأقصى. [4]،كما أن تونس كانت تستورد الأرز والأقمشة من تركيا ومصر[5]، وتستورد القماش من الهند كذلك[6]، كما أنها تستورد الصوف من إسبانيا[7]

كما سجل الميزان التجاري لسنة 12/1874هـ، 6.300.000 فرنك للواردات، 26.000.0000 مليون للصادرات ومن هذا نرى أنه رغم هذا الربح للميزان التجاري فإن حاجات السكان معتدلة. وهذا ما أدى إلى اتساع التجارة البحرية حيث سجلت سنة 1878م حركة البواخر في ميناء تونس وحده 257 مركبا فخاريا و 480 مركبا شراعيا. [8]

---

[1] -أحمد قاسم :أوضاع إيالة تونس العثمانية على ضوء فتاوى ابن عظوم، في المجلة التاريخية المغربية، العدد 33-34، مطبعة الاتحاد العام التونسي، تونس، 31 جويلية 1979م، ص 152.

[2] -نفسه، ص 154.

[3] - عبد العزيز الثعالبي، المرجع السابق، ص ص 91،92.

[4] - الحشائشي، المصدر السابق، ص 108.

[5] - أحمد القاسم، المرجع السابق، ص 154.

[6] - الحشائشي، المصدر السابق، ص 379.

[7] J.M Kenture de paradis, tunis et alger au XVIII siecle, arabe séndbad paris , 1983, p 121.

[8] - عبد العزيز الثعالبي، المرجع السابق، ص ص 92-93.

لقد شهدت تونس في عهد الصادق بن باي عدة اضطرابات في الوضع الاقتصادي، وذلك بسبب الاضطرابات الداخلية – ثورة علي بن غداهم – إضافة إلى الأوضاع الاجتماعية المتدهورة – الأمراض – هذا ما أثر على تعطيل الإنتاج الزراعي والصناعي[1]، إضافة إلى الجراد الذي قدم إلى إيالة تونس [2]، كما ظهرت سكة من النحاس في محرم 1283هـ/ ماي 1866م، والتي عملت على تعطيل البيع خاصة في القمح والشعير والزيت، وكانت ضريبة الشعير والقمح من أشد الضرائب [3].

إضافة إلى قيام الصادق باي بتعديل قانون الزيتون بالوطن القبلي، بعد القانون المجحف الذي كان من قبل، إضافة غلى تعديل قانون النخيل بالجريد، حيث أبدل القانون الأول المجحف بقانون آخر غير مجحف[4].

كما عمل الصادق باي بضبط الفلاحة بقانون يحتوي على ثلاثة وسبعين فصلا في ضبط أحكامها ومصالحها وذلك في 25 صفر 1271هـ[5].

وقد أشار أحمد بن أبي الضياف بأن الثورة في البلاد التونسية خلال ق 19م راجعة إلى عدم تطور الصناعة والتجارة وفقدان الموارد المنجمية الهامة فقد يردد في مؤلفه، العبارة:" وليس في الإيالة مقطع للنقدين" في إشارة لانعدام مناجم الذهب والفضة [6].

لقد عرف الاقتصاد التونسي تدهورا كبيرا خاصة في القرن 19م، وذلك راجع لعدة أمور ساهمت في ذلك، رغم الجهود التي قام بها البايات، كما أن هذا التأخر في الوضع الاقتصادي، جعل الإيالة تعاني الفقر والحرمان، إضافة إلى عدم وصولها بالركب الحضري للدول المتقدمة.

---

[1] – شوقي عطاء الله الجمل، المرجع السابق، ص 123.

[2] – السنوسي، المصدر السابق، ص 167.

[3] – أحمد بن ابي الضياف، المصدر السابق، ج 01، ص 76.

[4] –نفسه ،ج6 ، ص ص 127-128.

[5] – السنوسي، المصدر السابق، ص 168.

[6] – أحمد بن أبي الضياف، المرجع السابق، ج6، ص 77.

3:الأوضاع الاجتماعية:

1-تركيبة المجتمع التونسي:

يتكون المجتمع التونسي من جماعات وعناصر جنسية مختلفة، وفدت عليها مهاجرة أو متاجرة، أو جادت غازية أو لاجئة، أو حلت بها فاتحة أو مستعمرة عبر مراحل زمنية مختلفة، فخضعت بذلك لحضارات دول كبرى قدمت إليها من الشرق ومن الغرب ومن هذه الأمم تذكرة الفنيقيون والرومان و الوندال والبيزنطيون، فالعرب والاسبان والترك ثم الإفرنج وقد كانت مدموغة وطبعها وصفاتها وخصائصها الجسمية والعقلية وعاداتها وتقاليدها بأنواع فنونها وصنوف لغاتها وكذا هذا الامتزاج ساهم في إحداث تطور وازدهار مس جوانب من القطر التونسي، إضافة إلى الأندلسيين والاتراك العثمانيين والإفرنج أدخلت هذه العناصر بعض التغييرات تأثر بها العنصر المحلي[1].

ينقسم المجتمع التونسي إلى مجموعتين أساسيتين هما سكان المدن وسكان الارياف وكل مجموعة إلى عدة فئات، حيث نجد على رأس الهرم الاجتماعي في المدن فئة الاتراك العثمانيين التي تتألف من القابعين على السلطة السياسية والعسكرية، أما الأرياف فقد كانت قبائل المخزن وباقي الأسر القوية تحتل الصدارة [2]، إن المجتمع التونسي كغيره من المجتمعات يتكون من فئات منها السكان الأصليون ينحدرون من أصول عربية، والسكان النازحون والاندلسيون والأتراك العثمانيون والكراغلة ومن اليهود والأسرى والمسيحيين. - **جماعة الحضر**: تضم العناصر الأولى من القطر التونسي الذي يعرفون بالبلدية إضافة إلى بعض الوافدين التي حفر منها هذا العنصر من هذه الوفود لاختلاف الطباع والأخلاق واللغة[3].

كما نجد فئة الاندلسيين التي اعطت هذه الفئة انتعاشا وازدهارا وتنوعا سكانيا، فأصبحت بذلك مركزا لاستقطاب السكان، وهذا الوضع ساهم في انتشار ظاهرة النزوح الريفي نحو المدن بحثا

---

[1] - حسن محمد، جوهرة تونس، د المعارف بمصر، شارع ماسيرو – القاهرة، 1961/ ص 59.

[2] -وليام شالر: مذكرات قنصل أمريكا في الجزائر 1816 – 1824، تع وتق اسماعيل العربي، الشرطة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1982، ص 54.

[3] - نفسه، ص 55.

عن العمل، ومن بين المدن التونسية التي وفد عليها نجد السكان الساحل التونسي وقابس والمحرس وعقارب ومن الأسر المعروفة نجد التومي والبرشاني وكسودة من قرقنة، إضافة إلى الحاج بالضياف والد أحمد بن أبي الضياف، أما بالنسبة للوافدين الذين جاؤوا من المدن المجاورة لتونس فكان أغلبهم هم الطرابلسيون، وهناك من جاؤوا من المغرب الأقصى مثل الشيخ محمد الفاسي، كما نجد فئة الأندلسيين الذين انتشروا في معظم المدن التونسية وكان لذلك أهداف علمية وتجارية وغيرها، وقد ارتفع عددهم في الأقطار المغربية منذ ظهور الخطر الإسباني عليهم، حيث ازداد عددهم في القرن17.

كما نجد فئة الاتراك العثمانيين، اقد شكلت النواة الأولى لفئة الأتراك العثمانيين في تونس من الجند الإنكشاري ومن المتطوعين الذين تركهم سنان باشا في القطر التونسي من أجل البلاد والاستقرار فيها، حيث ينقسم الأتراك الى مجموعتين، فالأولى تتكون من الأتراك العثمانيين الذين كانوا يأتون من الاناضول، أما الفئة الثانية فقد كانت تتشكل من الاوربيين بعد اعتناقهم الإمام وكانوا يسمون بالأعلاج[1]، كما أن لفئة الكراغلة التي تعد من اهم الفئات الاجتماعية بعد فئة الاتراك العثمانيين، وهم السكان المولودين من أب تركي وأم تونسية، حيث استقر هؤلاء في المدن الواقعة على ساحل البحر كالمهدية والمنستير وبنزرت وغار الملح، أما فئة الدخلاء حيث كانت تعيش في تونس جاليات من اليهود والأسرى والمسيحيين[2].

[1] -كمال السيد أبو مصطفى: محاضرات في تاريخ المغرب والأندلس، مركز الاسكندرية للكتاب، مصر 2003، ص 226.

[2]- نفسه ، ص 227.

لقد انتشرت طائفة من اليهود في تونس من العصور القديمة حيث وصل عددهم غلى حوالي ألف يهودي، ويعود السبب في ذلك لتوفر عامل الاستقرار فمارسوا شعائرهم الدينية بكامل حريته[1]

كما عرف القطر التونسي توافد عدد كبير من النصارى الذين أسروا من مختلف مناطق البحر المتوسط، والمتأتين من عملية القرصنة التي تطورت تطورا كبيرا في هذه المرحلة التي عرفتها الإيالة التونسية من حكم الأتراك المحبين للبحر، حيث يأتون بالأسرى حسب اختلاف مكانهم، فنجد الأسرى الغربيين منهم الاسبان والايطاليين، أما الصف الثاني هم اليونانيون و البلغاريون و الأرمنيون وهم صغار السن حيث اندمجوا بالسكان المحليين حيث تولوا المناصب العليا في الدولة.

لقد تأثر المجتمع التونسي بهذه الفئات في جميع مجالات لمجتمع وهذا ما يظهر في تلك الرموز المختلفة التي تعبر عن حضارة كل فئة والتي نجدها في الجوامع والحمامات والمدارس والقصور، إضافة إلى اللهجات داخل القطر التونسي، حيث نجد اللغة العربية واللغة الاسبانية واللغة التركية والعقلية النابولية وغيرها .

2-الأوضاع الصحية:

لتدهور الأوضاع الاجتماعية انعكاسات كبيرة على المجتمع وسببا في تأخره وضعفه إذ تلحق به أضرار وخيمة على جميع القطاعات، وكذا على النمو الديمغرافي ذلك عن طريق انتشار الأوبئة والأمراض والتي ألحقت بالإيالة التونسية في الفترة الحسينة.

ففي ظل التوتر الداخلي والصراعات وتأزم الأوضاع الداخلية وتدهورها، التحق بالإيالة التونسية أمراض وأوبئة فتكت بشعبها منها الحمى والجرب والتيفويد إضافة إلى وجود مرض الشلل ومرض الصقيع وهو انتفاخ الأصابع، كما كام لمرض الكوليرا نصيب في الهلاك والذي ظهر سنة 1865م، ثم تولى في انتشار الحمى التيفوسية سنة 1867م، وما نتج عنه تعطيل الإنتاج الزراعي

[1] – حسن محمد جوهر، المصدر السابق، ص 61.

والصناعي، فانتشرت بذلك المجاعات والقطط، وما نتج عنه ارتفاع في الأسعار إضافة إلى ظهور وباء الطاعون ولذي حصد عددا كبيرا من الأرواح [1].

ولقد استمرت هذه الحالة في التدهور داخل الحضارة، حيث لجأ المواطن التونسي إلى العلاج بالطرق التقليدية، كما ان هناك من يستخدم مواد تطهيرية مثل القطران والثمار والتين والخروب، وزيت الزيتون من الساحل والفطر الأحمر من خلف الوادي، وأوراق الصفصاف والبصل والثوم والرند الوردي والحلبة وكلها مستعملة للشفاء أو تسكين الأوجاع[2].

3- عادات وتقاليد المجتمع التونسي:

يعتبر المجتمع التونسي كغيره من المجتمعات العثمانية، يتميز بعادات وتقاليد متنوعة، توارثت من جيل إلى آخر، ومن هنا ارتأينا ان نعرض منها خاصة تلك التي تخص المواسم.

هناك عدة مواسم يحتفل فيها المجتمع التونسي منها:

- **عيد الفطر**: هو أعظم مواسم المسلمين، وهو فرحتان فرحة الصيام وفرحة العيد، فأول ما يقوم به التونسي و الخروج من المنزل غلى الجامع ليصلي، ثم العودة إلى البيت فيجد الطاولات مليئة بمختلف أنواع الحلويات والقهوة والشاي، أنا النساء فلبسن احسن اللباس والحلي ويضعن الزينة، ثم يذهبن للمعايدة وفي الغداء يقمن بتحضير أكلة اللحم المطبوخ بالزبيب، وأكل أخرى تعرف بالطبيخ وهو لحم في الزيت والخضر.

- **عيد الأضحى**: عند العودة من الصلاة يبدأ الرجال بالنحر حيث أنهم يكونون صائمين ويفطرون على أكل جزء من الكبد وعند الانتهاء يذهبون لزيارة القبور أما النساء فيقومون بتحضير الحلويات والكعك.

---

[1] - أحمد بن ميلاد: المستشفيات بتونس، مجلة الفكر، العدد 08، 1977، ص ص 50-53.

[2] - المختار باي: حسين بن علي مؤسس الدولة الحسينية، تر، البشير بن سهامة، ط 1، الاطلسية للنشر، مطبعة توب، تونس 2009، ص 538.

– **يوم عاشوراء:** من فوائد هذا اليوم ذبح الدجاج وشراء لحم الغنم، وتفريح الصبيان بالدراهم وإشعال الشموع في الليل وإيقاد النيران في ليلة عاشوراء، وإطلاق البارود، أما النساء فلا يقمن بالغزل في ليلة عاشوراء.

– **رأس العام:** من العوائد الجارية أن ليلة رأس السنة الهجرية يحضرون فيه طعام الكسكس بالقديد ورأس الخروف المملح والفول، وتسمى هذه الليلة بليلة العجوزة والعجوز، ويقرب الباي السكة باسمه المؤرخة بالعام الجديد. [1]

[1]– محمد بن عثمان الحشائشي: المصدر السابق، ص ص 195-196.

-الاحتفال بالمولد النبوي الشريف:

لقد كان الاحتفال بالمولد النبوي الشريف في تونس لأول مرة في عهد الدولة الحفصية، والاحتفال به كان مظهرا للزينة والعلاقات وكان إحياء ليلة المولد بالتلاوة والأناشيد وقصائد المديح، وقد أعطوه قيمة كبيرة ذلك من خلال الاهتمامات المتكررة في كل مولد نبوي، حيث رتبت قيم مالي بالنسبة للمؤذنين بمناسبته، إضافة إلى منح أخرى بالنسبة للصبيان التي تتجمع بالكتاتيب ليلة المولد النبوي الشريف لتلاوة القرآن[1].

وفي هذا العدد يشير المؤخر ابن أبي دينار في زمنه القرن 11م، إلى أن الاحتفال بالمواد النبوي كانت بالغة الأهمية، لا سيما بدار نقيب الأشراف يحضرها الناس، الفقهاء، كما ذكر الزينة التي كانت تقوم بها بعض الزوايا كالزاوية القشاشية، والبكرية، حيث يهرع الناس في المبيت في الزاوية البكرية[2].

هذا يبين الأهمية التي تميزت بها ليلة المولد النبوي عند أمراء الدولة المرادية التي صار ملوك الحسينية، فكان أول ملك حسيني رتب موكبا رسميا للمولد النبوي هو المشير أحمد باي وكان ذلك سنة 1257هـ/1841م بمدينة القيروان وعلى منواله اتبع المشير محمد الصادق باي في تفخيم هذا الموسم حيث أمر بالاحتفال به في سائر واصم المملكة التونسية وخصص له اعتمادات مالية بميزانية الدولة، وما يميز هذا الاحتفال هو الموكب الفخم الذي يأتي في مقدمته الباي، حيث يقوم بزيارة مقامات الصالحين مثل ضريح سيدي علي بن زياد، كما تقام مأدبة فاخرة يحضرها كبار الدولة، كما كان الباي يجول كل شوارع المدينة وحوانيتها، ويعود بعد ذلك غلى سرايا المملكة للتبرك بحضور قراءة الفقه، الشريعة بجامع الزيتونة وقراءة القرآن والأحاديث النبوية.

---

(1) – ابن أبي دينار: المؤنس في أخبار إفريقيا وتونس، ط3،د المسيرة للصحافة والطباعة والنشر، بيروت لبنان،1993 م، ص207 .

(2)- نفسه ،ص 210.

أما بالنسبة لعامة الناس فقد كان الاحتفال به كل بطريقته الخاصة وكما جرت العادة في تونس أن أهل كل بيت يتبركون بصنع عصيدة السميد والسمن والعسل يوم المواد النبوي، إضافة إلى مزيج الحليب والفستق والسكر يسمنوها الرغيدة متفائلين بالعيش الرغيد.

فمن خلال هذا يتضح بأن ليلة المولد النبوي الشريف في تونس تحمل صبغة دينية تداول الاحتفال به عبر الأجيال دون الاستهانة به وجعله يوم مبارك يشاركون فيه بقراءة القران الكريم والأحاديث النبوية[1].

– النياشين التونسيين:

إن الاوسمة الافتخارية وعلامات الامتياز من مبتكرات الدول الأوربية، أمثال الدولة الفرنسية صاحبة وسام اللجيون دونوز، الذي اخترعه نابليون سنة 1802م اما الدول الإسلامية فكانت في غنا عنها إلا بعد ظهوره في بلاد الغرس وعنهم اخذ الاتراك هذه الصفة، وإحداث أول وسام من طرف السلطان محمود خان الثاني أسماه نيشان الافتخار في سنة 1831م، وعنه اقتبس مصطفى باي نيشان وسام الافتخار التونسي في سنة 1836م، كان شكله بغيا تعلوه نجمة وهلال، ويرصعه بالحجارة الكريمة اسم الباي، وعندما آل الحكم لابنه أحمد باي ابتدأ من حيث انتهى أبوه، وكتب عليه اسم أحمد حيث بدأ في مشروعه بتغيير شكله فجعله ذا شكل مستدير وبتقلد المشير محمد باي عمل على تغيير ما قام به سلفه في العرش الحسيني وأبطل النياشين المرصعة بالياقوت وانتزعه وبيعه لفائدة صندوق الدولة، أما محمد الصادق باي فلم يحدث على وسام الافتخار أي تغيير واكتفى بما وقع به المشير الثاني محمد باي .

[1] – محمد بن الخوجة، المصدر السابق، ص239.

كانت النياشين التونسية تصنع بدار السكة بباردو، وكانت النياشين تكتب بخط اليد. وكان النياش التونسي يصنع للرجال والنساء من الوجهاء والفقهاء من ضباط وموظفين تونسيا أو فرنسيا، اما الفقهاء فـلم يلبسوا نيشانا [1].

– **النشيان الحسيني**: هو عبارة عن نيشان مستدير مرصع بالياقوت، ليس به كتابة ولا إشارة، يلبس حول الرقبة بحاشية مماثلة لحاشية نيشان الافتخار، اخترعه المشير أحمد باي سنة 1839م، وهو ارفع الأوسمة التونسية مقاما، وهو خاص بآل البيت الحسيني، له قعد لتحقيق ورائه ملك في تونس في آل البيت الحسيني.

– **نيشان عهد الامان**: هذا النيشان الثالث بعد النيشان الحسيني ونيشان العهد المرصع، أحدثه المشير الصادق باي في سنة 1859م، لتراتيب عهد الامان، كان يلبس بالطوق وجعل لبسه فوق الصدر لجهة اليسار وكتب فوق شعار النيشان لفظ محمد.

– **نيشان العهد المرصع**: هذا النيشان فرع لعهد الأمان وهو أعلى منزلة ودرجة منه، أحدثه محمد الصادق الباي في سنة 1874م، بيضوي الشكل يلبس بالطوق وهو أجمل النياشين[2].

– **دخول الزي الأوربي في العادات التونسية:**

للباس أو الزي، الدور الكبير في إبراز ثقافة أي شعب والتعبير موروثها الثقافي وعاداتها وتقاليدها وهو المميز لمختلف البلاد العربية، التي احدث عليها تغيير بسبب بعض التدخلات الأجنبية والتي تأثر بها بعض من العرب مثل تونس التي امتاز أهلها بلبس القفطان والعمامة والتي تغيرت بتغير الأوضاع المحيطة بها، كالتأثر بالزي الأوربي بدءا من السلطان العثماني محمود خان الثاني الذي أصدر أمر لولاة المماليك العثمانية ولأمراء بعض البلاد بما في ذلك تونس فكان أول باي يخلع الزي العربي ويلبس الوي الأوربي هو الحسين الباي الذي تعرض لانتقادات عديدة ورأوا

---

[1]– أحمد ابن ابي الضياف،المصدر السابق، ج 04، ص 167.

[2]– أنظر الملحق رقم (7) النيشان الحسيني ،و الملحق رقم (8) نيشان عهد الأمان ، و الملحق رقم(9)نيشان العهد المرصع .

فيه بدعة وضلالة من طرف عامة الناس، وبطريقه هذا نهج المولى مصطفى باي، ولكن عامة التونسيين بقوا على حالتهم القديمة في بداية الأمر، ويعود السبب في هذا التأثر إلى تلك العلاقة الممتازة بين محمد باي ومبعوث فرنسا القنصل ليون روش، هذا الأخير غرس في نفس الباي حب القانون، فابتكر سموه عهد الأمان، وبمقتضاه جاز اليهود التملك العقاري ولبس الشاشية الحمراء، وساووا في الحقوق بين عموم سكان الإيالة التونسية، حيث كان بينهم الكثير من أبناء عمومتهم، مثل اسبانيا وإيطاليا، إضافة إلى العنصر الإسرائيلي الذي شديد التعلق بالزي الأوربي.

لكن وبصفة عامة فإنه لا يوجد أي نفر من التونسيين المسلمين اقتدى بهم في لباسهم ما عدا أهل الدولة كضباط الجيش، وموظفي الحكومة، فكان لباس هؤلاء في ساعات العمل هو السترة السوداء والسراويل الطويلة، وكان هؤلاء يخلعون هاته اللبوس عند رجوعهم لبيوتهم، ويعودون للبس القفطان ناهيك ان بعضهم لم يقدر على ترك عمامته. [1]

[1] – محمد بن الخوجة، المصدر السابق، ص 276.

الحياة الثقافية:

1- المدرسة الصادقية:

لقد كانت أحوال البلاد التونسية في أوضاع مزرية، مثقلة بالديون وموارد الثروة العامة بيد العناصر الأجنبية، فسيطرت على وضعها الداخلي وجل أنشطتها الاقتصادية والسياسية، فبعد تقلد خير الدين مقاليد الإدارة التونسية لسنة 1290 هـ/1873م، حاول النهوض بهذه الاوضاع بداية من رحلاته الكبرى التي قام في أغلب عواصم أوربا في سنة 1278هـ/1861م، حيث استنتج أن سبب تأخر المسلمين في القرون الحديثة هو جهلهم بالعلوم الكونية التي أشرقت أنوراها في أنحاء أوربا ذلك من خلال الاكتشافات العلمية في مقابل ذلك كانت مصر تعيش نوعا من التقدم العلمي الذي عزز جوانبه والي مصر علي باشا بإدخاله التعاليم والفنون الأوربية إلى بلاده، وذلك بإرسال بعثات علمية وترجمة الكثير من الكتب في الجغرافيا والطب والكيماء والتاريخ[1][2].

وفي خضم هذه الظروف كانت تونس تعيش نوعا من الركود العلمي في عهد الصادق باي الذي حاول النهوض به والتقدم، ذلك من خلال إحداث مدرسة لتعليم العلوم العربية وبعض اللغات الأوربية وبعض العلوم المصرية، إضافة إلى تهذيب أساليب التعليم بجامع الزيتونة مع تأسيس مكتبة عمومية للمطالعة بالجامع، بدعم من خير الدين، حيث وضع برنامج للتعليم بجامع الزيتونة وإحداث المدرسة الصادقية وكان مقرها بقشلة الزنايدية[3]، وأقيمت لجنة متخصصة مركبة من رئيسها الوزير خير الدين وأعضائها الشيخ عمر بن الشيخ قاضي باردو والشيخ أحمد بن الخوجة المغني الحنفي، الشيخ الطاهر النيفر القاضي المالكي،

---

[1] – محمد بن الخوجة، المصدر السابق، ص 309.

[2] – أنظر الملحق رقم (**10**): صورة المدرسة الصادقية .

[3] –الزنايدية: هي ثكنة قديمة بناها حمودا باشا في أوائل القرن التاسع عشر، القشتلة: ثكنة عسكرية. محمد بن الخوجة ، المصدر السابق، ص308

وأمير الأمراء الشيخ محمد العزيز بوعتور باش كاتب، المدرس الشيخ محمد بيرم رئيس جمعية الأوقاف، وأمير اللواء محمد العربي، رزوق رئيس المجلس البلدي، والمدرس الشيخ مصطفى رضوان، المدرس الشيخ أحمد الورثلاني، فتناظرت هذه اللجنة في المشروع في 05 ذي الحجة 1291هـ/13 يناير 1875م[1].

ولقد ركزت المدرسة الصادقية على جوانب عديدة وما تضمنه برنامج المدرسة، حفظ القرآن الكريم والحديث وعلوم الدين من عقائد وفقه بالمذهبين وعلوم العربية النحو والصرف والمعاني والبديع والأدب والتاريخ الإسلامي، وحاضر في ذلك مدرسين من أعلام جامع الزيتونة منهم الشيخ الأمين بن الخوجة، الشيخ محمد القرطبي، إضافة إلى تعليم الخط بالقلم العربي وبعض اللغات الأوربية إضافة إلى تلقين العلوم المصرية مثل الرياضيات والجبر والحساب وعلوم الصحة والنبات والحيوان والفلاحة، وكان التعليم مجانا للجميع واشترط لباس خاص قفطان عربي، في مقابل ذلك كان الصادق باي يوجه العناية الكاملة للتلاميذ حيث كان يعقد لهم الاحتفالات الجامعة لختم الامتحان بباردو في مجلس يشرف عليه الباي بجوائز فاخرة للتلاميذ الممتازين ولقد تناوب على المدرسة في إدارتها عدة شخصيات مثل محمد العربي رزوق في سنة 1875م إلى سنة 1881م، إضافة إلى المستعرب دلماس 1310هـ/1892م.

لقد أصبحت المدرسة الصادقية محطة ومحل ورخاء للانتظار، لأنها سالكة بتلاميذها مسلك الاكتمال بتعليم نافع ومازالت إدارتها مجتهدة في توزيع نطاق التعليم التي هي اليوم في السنة 64 من عمرها.[2]

[1]- محمد بن الخوجة، المصدر السابق ، ص ص 312- 313.

[2] – نفسه ، ص 314.

2- جامع الزيتونة:

يعتبر جامع الزيتونة أعز وأفخم مؤسسة إسلامية تونسية، عمت سمعته المشرق والمغرب، حيث ينسب اسمه إلى وجود زيتونة في المكان الذي بني فيه، إضافة إلى وجود راهب نصراني كان يتعبد بهذا المكان عند نزول المسلمين الأولين بتونس ومن هنا اقتنعت لشريعة الإسلامية إيجاد مسجد للصلاة للمسلمين بتونس سموه بجامع الزيتونة[1].

أما عن الهندسة المعمارية لجامع الزيتونة فغنها كانت موافقة تماما لبقية جوامع عواصم إفريقيا الشمالية، وسواري المرمر الملون المقامة عليها أقواس بيت الصلاة تعود أصولها إلى قرطاجنة، وأبوابه من عود الصندل، صومعته في أشد الجمال من داخلها وخارجها بارتفاع 43 متر مهندسها سليمان سليمان النيقرو، إضافة إلى وجود مجال فسيح بصحن الجامع، كما توجد به مزولة لضبط أوقات الصلاة حسب فصول السنة، إضافة إلى أن ماء زغوان كان جاريا بجامع الزيتونة.

أما التعليم بالجامع فقد كان أساسه القرآن والسنة الذي سهر على تلقينه للأجيال من خلال حرصه على تدريسه به، فقد كانت في بداية الأمر ضئيلة حوالي القرن 13هـ، لكن ومع مرور الوقت أصبح يساير كليات قرطبة وبغداد والقيروان، ناهيك بأقطاب العلم الذين أنبتهم رياض جامع الزيتونة منهم المؤرخ ابن خلدون، والإمام محمد بن عرفة .

وبهذا فقد قسم التعليم بجامع الزيتونة إلى فرعين: تعليم علوم الشريعة وتعليم العلوم الوضعية، أما علوم الشريعة فهي: تفسير القرآن[2]، الحديث، التوحيد، الفقه، الفرائض، الكلام، التصوف، والعلوم الوضعية من النحو اللغة والمعاني، البيان، الأدب والشعر والتاريخ، وكلا هذه العلوم تجرى في ثلاث درجات: ابتدائية، وسطى، عالية حيث تمكن التلاميذ من الحصول على شهادات في كل طور بعد امتحان عمومي كتابي وشفهي فالشهادة الابتدائية تسمى الأهلية والدرجة الثانية تسمى التحصيل ويبلغ عدد الدروس بخمسين درسا في التعليم العالي ومائة وثمانون

---

[1] محمد بن الخوجة، المصدر السابق ، ص 283.

[2] – السنوسي، المصدر السابق، ص11.

درسا في الدرجة الثانية والأربعمائة في الدرجة الابتدائية، فعدد تلامذته بالإجمال تساوي ثلاثة آلاف طالب، وطلبته خاضعون لنظام شديد لا يعرفون غير المطالعة والقراءة من الصباح إلى المساء.

ومن هنا يمكن القول بأن جامع الزيتونة يعتبر صرح علمي واسع كان هدفه نشر العلم والعلوم الإسلامية وتلقينه بكل إخلاص، فأنبت بجعبته مؤرخين وعلماء يشهد لهم التاريخ[1].

3- ظهور الطباعة في تونس:

لقد ساعدت الطباعة في توسيع ميادين الثقافة، ونشر نور العلم بيم كافة الشعوب، بعد الجهل الذي خيم على تلك الشعوب، ويعود الفضل في ابتكارها إلى الأوربي يوحنا كونتير، وأول ما طبع بأوربا من الكتب أسفار التورات باللغة اللاتينية، أما بالنسبة للطباعة بالأحرف العربية ظهرت في أوائل القـرن 16، وأول ما طبع مزامير داوود عليه السلام بمدينة جنوا في 1516م، إضافة إلى بعض كتب الحكمة عند العرب مثل كتاب النجاة للشيخ ابن سيبنا، وفي 1593م تكرر طبع الكتب باللغة العربية في كل من باريس وروما وليون وغيرها من العواصم الأوربية، في حين رفضها العرب في بداية الأمر لكن سرعان ما قبلها، وكانت الخطوة الأولى من مصر بتأسيس جريدة الوقائع المصرية بطبعهم لكتب

كثيرة في التاريخ والأدب وبمصر اقتدت تونس لتسير في طريق التمدن في عهد محمد باي بداية من 1845م[2].

---

[1] – محمد بن الخوجة، المصدر السابق، ص 288.

[2]- نفسه ،ص288.

حيث قرر اتخاذ مطبعة حجرية لتعميم أوامره ونواهيه وتسهيل نشرها في الإيالة بين أوساط شغبها، فاستحضر أداتها وسعى إلى جلب أحرف معدنية مع الأجهزة التابعة لها من دار الطباعة بباريس وأول ما طبع بهذه المطبعة لائحة تراتيل داخلية وعلى منواله هذا صار المشير الثالث محمد الصادق باي لإحداثه لجريدة الرائد التونسية يوم الأحد 04 محرم 1277هـ/1860م، حيث خصصت قسما،

منها للأمور الرسمية وأسند رئاسة تحريرها إلى الأستاذ الشيخ: محمود قبادو[1]، وكانت المطبعة يومئذ بالحفصية وأقلام إدارتها بدار العشرة[2]

وبهذا النجاح المحقق أقبل الناس على هذا المشروع وتسابقوا من الاستفادة منه فنشروا بعض الكتب في التاريخ واللغة إضافة إلى التوحيد والتصوف والفقه، وأول ما طبع قوانين الدولة ثم كتاب سلوان المطاع لابن المظفر، كتاب واسطة السلوك في سياسة الملوك لابن زيان[3].

(1)- محمود قبادو: درس بجامع الزيتونة مبادئ الفقه والنحو والصرف، وواصل تعليمه على يد محمد بيرم الثالث وأحمد بن الطاهر كما عين كمعلم للعربية بمدرسة باردو العسكرية، وتخلى عن التدريس بها في 1855م، في عهد محمد باي الذي عينه مدرسا من الطبقة الأولى بجامع الزيتونة ومن تلامذته الوزير خير الدين والجنرال الحسين ثم عين قاضيا بباردو 1867م، ثم ولي خطة الإفتاء 1868م إلى غاية وفاته 1871م. محمد الفاضل بن عاشور: الحركة الأدبية ولفكرية في تونس، مطبعة دار الهناء، جامعة الدول العربية 1955م، ص ص 14، 15.

(2) –دار العشرة: هي المعروفة بهذا الزمان باسم دار حسين الوزير أمير الأمراء حسين المملوك مستشار المعارف توفي سنة 1304هـ/1886م، وبها مساكن ودواوين الجنرال القائد الأعلى للجيوش الفرنسية بتونس، محمد الخوجة ،المصدر السابق ، ص 163

(3)- نفسه ، ص 168.

4- دخول البريد بتونس:

البريد هو مصطلح معناه نقل الرسائل والأخبار والمعروف عنه عند العرب منذ القدم في نقل أخبارهم ورسائلهم هو الحمام الزاجل، إضافة إلى بعض الطرق الأخرى التي تؤخذ في نقل أخبارهم، أما في الزمن الحديث فقد تغير مصطلح البريد بتغير استعماله، فلقد أحدث تغيرات جذرية مست مختلف جوانب الحياة وسهلت عملية تبادل الأخبار بسرعة ليجعل العالم كقرية صغيرة.

فكان لظهور التلغراف لأول مرة في أوربا في حدود سنة 1260هـ/1844م دور بالغ الأهمية في تسهيل نمط الحياة وبدءا من هذه السنة بدأ الانتفاع به حتى بلغ مشارف الدول العربية بما في ذلك تونس في دولة المشير محمد الصادق باي حيث كان لديهم نوع من التلغراف بالعلامة الشعاعية بدون سلوك، اتخذه المشير احمد باي الأول فيما بين تونس وخلف الوادي.

أما التلغراف السلكي نصب في تونس في سنة 1276هـ/1859م إثر ولاية محمد الصادق باي حيث أمضى اتفاقا مع الدولة الفرنسية في تخويلها منحة إحداث التلغراف من حلق الوادي إلى حدود الجزائر من جهة سوق أهراس شرط مروره على حاضرة تونس وباردو وباجة الكاف مع اعتباره ملكا للدولة التونسية، ولهما الحق في استرجاعه لمجرد دفع مصاريف نصبه التي قدمتها الدولة الفرنسية، ولقد كان مركز إدارة التلغراف يومئذ بدار الكاهية بنهج المقطر على مقربة من قشلة بسيدي عامر إضافة إلى نصب أسلاك التلفون بتونس وأوله كان التلفون المتنقل الذي بصحبة الجنرال بريار في طلبه إمضاء صك الحماية على المشير الصادق باي [1].

[1] – أحمد ابن أبي الضياف، المصدر السابق، ج 5، ص 22

المبحث الثاني: علاقة تونس الخارجية وفرض الحماية

المطلب الأول: علاقة تونس بالدول الأجنبية (الدول العثمانية، ايطاليا، فرنسا، انجلترا)

– علاقة تونس مع الدولة العثمانية

–علاقة تونس مع الدول الاجنبية

المطلب الثاني: فرض الحماية الفرنسية على تونس

1 – علاقة تونس مع الدولة العثمانية والدول الأجنبية

– علاقة تونس مع الدولة العثمانية:

لقد دخلت الدولة لعثمانية لتونس نتيجة اشتداد الصراع بين الإسلام والمسيحية في الحوض الغربي المتوسط في أوائل القرن 16م[1]، وقد كانت المملكة التونسية تقر للسلطات العثمانية بالطاعة[2]، والدليل على ذلك ما وقع من الحروب بين تونس والجزائر، إذ لم يخرج أحد من الطرفين بالخروج عن الطاعة، كما ساعد أبي محمد باشا الحسيني أولاد قرمانلي على أخذ طرابلس من يد علي برغل[3].

وقد ألحق السلطان عبد المجيد خان طرابلس بالداريات لما وقع من الحروب في آل بيت قرمانلي، وقد فهم احمد باي من الدولة العثمانية أنها تريد إلحاق تونس بطرابلس[4].

كما طلبت السلطنة من أحمد باي ترتيب مال معين كل سنة، لكنه أرسل الشيخ أبا إسحاق إبراهيم الرياحي إلى السلطان شافعا، وقد تم السكوت عن ذلك، ولما طلب أحمد باي لقب مشير سنة 1256هـ ، انتهز وزراء الدولة العثمانية الفرصة لإلحاق تونس بطرابلس، وهنا علم الباي بأن الدولة العثمانية، ستبقى على هذا الحال، ولو بحرب ولربما تجد لذلك رخصة شرعية، وهنا اشتد خوفه من التنظيمات الخيرية [5]. وفي ذي القعدة 1261هـ ، أتى رسول من الدولة العثمانية سليم باي الى تونس يتوقع الأمان منها ، لكن أفكار القنصل الفرنسي كانت سلبية،

---

[1] – صلاح العقاد، المرجع السابق، ص 18.

[2]– أحمد بن أبي الضياف، المصدر السابق،ج3، ص 28.

[3] – نفسه ج 3، ص 205.

[4] – نفسه ج 3، ص 17.

[5] نفسه ، ج4، ص49.

بحيث كان يصور له خطر المولاة في الدولة العثمانية وأطمعه بأن فرنسا ستحميه [1]، وبقي احمد باي في شكله ضد الدولة العثمانية في حرب موسكو[2].

بعدها أتى محمود باي إلى الحكم، الذي أعلن عن خدمة الدولة العثمانية، ليأتي ليون روش الذي ترامى على صحبته، إذ كان يحذره من مولاة الدولة العثمانية وأن فرنسا تمنعه من ذلك[3]، كما نجد محمد باي بعث برسالة إلى السلطة العثمانية توجه بها خير الدين، مفادها الطاعة والولاء للدولة العثمانية يأتي – خير الدين- شعبان 1281هـ/03 ديسمبر 1864م بمكتوب من الصدر الأعظم ومحتواها أن نية السلطان منحصرة في الإصلاح والتأييد لإيالة تونس، والخطبة والسكة يكون كل منهما باسم السلطان كما كان في القديم، ومنع ما يدخل الخلل والتنافر بين الجانبين[4].

وعندما وقعت ثورة علي بن غداهم 1861م، إذ كانت موقف الدولة العثمانية ، وكانت أحداث الجزائر مازالت في الأذهان، لذا أوفدت سفيرها حيدر أفندي إلى تونس وكانت التعليمات التي زود بها تقضي بالعمل على تأكيد تبعية تونس للدولة العثمانية وقد أدرك هذا المندوب العثماني حقيقة الوضع، فأشار إلى إسراف الباي وحكومته مما أدى إلى إفلاس البلاد، وأن هذا الوضع فتح الباب للتنافس بين القناصل الأجنبية، وهنا اندفعت الجماهير في المساجد، الشوارع للتعبير عن تعلقها بالسلطان حامي الإسلام[5].

---

[1]- احمد بن ابي الضياف، ج4، ص ص 84-92

[2] - نفسه، ص 156.

[3]-نفسه ، ص 261.

[4] - نفسه، ج6، ص ص 24-26.

[5]- شوقي عطاء الله الجمل، المرجع السابق، ص 122.

كما أرسل الصادق باي إلى د.ع طلب تحديد الفرمان العالي لإحكام الوصلة وربط العلاقة وكان له التجديد من الدولة العثمانية فرمانها العالي كما أرسلت له سيفا مع النيشان، وعندما وقعت حرب الترك مع الروس جمعت إعانة مالية بلغت 4.663.433.09 ريالات تونسية فضة أرسلت للدولة العثمانية، كما جمعت الخيل والبغال لنفس الغرض وأرسلت[1].

إذن فعلاقة الدولة العثمانية بتونس تنبع أساسا من الأهداف والمرامي الحقيقية لهذه الدولة .

علاقة تونس مع الدول الأجنبية (فرنسا، انجلترا، إيطاليا):

عرفت أوربا خلال القرن 19م عصر الاختراعات والاكتشافات والتقدم لذلك كانت تسعى إلى بسط نفوذها السياسي والاقتصادي على ما يعرف اليوم بشعوب العالم الثالث، عكس العالم الإسلامي الذي كان يسير من سيء إلى أسوء، إذ تدهورت أحوال دولة بتدهور الخلافة لعثمانية، وهو نفس الشيء بالنسبة للإيالة التونسية التي لم تختلف عن باقي الولايات العثمانية.

ومن الطبيعي أن يكون لتونس ظروفها الخاصة، نتيجة قربه إلى أوربا الأمر الذي يساعد الدول الأوربية عامة، وفرسا خاصة في زيادة الطمع فيها[2].

وأمام الضعف الذي تعاني منه تونس، أدى إلى التنافس بين قناصل الدول الأجنبية (فرنسا، انجلترا وإيطاليا)[3].

ويرجع دور القناصل داخل تونس إلى دولة حمودة باشا باي، الذي كان يحرص على سياسة خارجية، عن طريق تنمية الصداقات لتي تهمه، وفي عهده صار قناصل لدولهم في تونس يسهرون على حمية مصالحها التجارية، مع العمل على إرضاء الباي وتفادي غضبه كقناصل فرنسا، انجلترا وإيطاليا والولايات المتحدة الأمريكية

---

[1] – السنوسي، المصدر السابق، ص 170.

[2] – محمد العربي بوعزيزي: تونس والعلاقات الخارجية في القرن 19م، ابن أبي الضياف والبعثات الأجنبية، ص ص 08-09.

[3] – نفسه، ص 09.

كما نجد دور القناصل الأجنبية خاصة في عهد محمد باي والذي ظهر في عهده عهد الأمان، إذ نجد أن هؤلاء القناصل كان لهم الدور الفعال، ولتأثير الكبير على الباي لوضع عهد الأمان، كما كان التنافس على أشده بينهم[1]كما لاحظ ابن أبي الضياف مدى اهتمامهم بنص عهد الأمان، وخاصة القنصل الفرنسي الذي ترجمه للفرنسية لمن لا يعرف العربية[2].

وفي عهد محمد الصادق باي عرفت البلاد أزمة اقتصادية واجتماعية حادة ناجمة من التأثيرات الخارجية من جهة، وما عرفته البلاد من سنوات جفاف من جهة أخرى، هذا ما دفع الشعب إلى القيام بثورة عام 1281هـ/1864م[3].

فالقناصل الأجانب كانوا يراقبون الوضع عن كثب ويتابعون تطور الأحداث في الثورة لحظة بلحظة، كما صور ذلك صاحب الإتحاف[4].

أما بالنسبة لمواقف القناصل من الثورة فقنصل فرنسا في تونس دي بوفال وجد في هذه الثورة فرصة ذهبية للتدخل في شؤون تونس، ونادي بتشجيعه للثورة بل تقدم بطلب تنحية المعروفين بعدائهم لفرنسا عن مراكز السلطة، كما طالب بإلغاء الدستور، وشاع خبر هذين المطلبين بين الأهالي، وكان لذلك وقع سيء في النفوس، فقد وجد الناس في هذا تدخلا مباشرا في شؤون البلاد، لتثبيت نفسها – فرنسا – دون قتال.

القنصل الانجليزي ريتشارد وود، كان على النقيض من ذلك يطالب بإلحاح بالالتزام بالدستور بل إنه كان يسدي النصح للباي عما يجب عمله لإخماد الثورة، وقام بجولة في عدة مدن ساحلية بحجة ممارسة نشاطه الدبلوماسي وكان يجتمع بالأهالي، ويدعوهم للالتفاف حول الباي والالتزام بالهدوء.

---

[1] – أحمد بن أبي الضياف، المصدر السابق، ج4، ص 234.

[2]– نفسه، ص 240.

[3] – محمد العربي بوعزيزي، المرجع السابق، ص 10.

[4] – أحمد بن أبي الضياف، المصدر السابق ،ج 5 ،ص 121.

ايطاليا كانت تخشى أن تلقى تونس نفس مصير الجزائر، وكانت الجالية الإيطالية بتونس أكبر الجاليات الأجنبية، وكانت لغتهم أكثر اللغات انتشارا، فكانت مطامعهم في تونس واضحة، ولذا فقد حشدوا في السواحل الإيطالية قوة كبيرة لتكون على أهبة الإبحار والتدخل في الوقت المناسب[1].

وأما هذا الوضع المتردي الذي دفع أساطيل فرنسا وتركيا وانجلترا وايطاليا إلى التسابق والتزاحم والتنافس لتحقيق مكاسب سياسية نفعية عاجلة لدولها، وهنا نرى أن ابن أبي الضياف الذي يتطلع إلى المستقبل المأساوي لنهاية الإيالة التونسية في عهد محمد الصادق باي، أي وقوع البلاد تحت الاحتلال 1298هـ/1881م، نتيجة لتلك الأوضاع الداخلية والتدخلات الأجنبية ولتحرشات القنصلية، قائلا:" فأنت ترى جواب القنصل الفرنسي وإصراره على أن يطلع على كل ما ينوي الباي القيام به ومفاده الامتهان والجذب إلى الاستيلاء على هذا الصقع الضعيف، حسا ومعنا بلا مشقة ولا جيش حقيقي سوى جيش التخيل والخطابة والترغيب والترهيب"[2].

كل هذه الأوضاع المتشابكة بين ممثلي الدول الأجنبية للدولة العثمانية نجدها تسير في سيرها، وتتطور تطورا سريعا، هذا ما جعل تونس تقع في الفخ الذي دبر لها من تهديد وكيد خاصة من طرف فرسا، والتي ستضرب بنزول قوتها من البحر في الأراضي التونسية.

02- فرض الحماية الفرنسية على تونس:

لقد شهدت سنة 1881م سقوط البلاد التونسية التي كانت تابعة للخلافة العثمانية، تحت السيطرة الفرنسية، وتعود جذور هذه الحماية إلى هزيمة فرنسا في حرب 1870م ضد ألمانيا، وهزيمة تركيا في حربها ضد روسيا 1877م، وعند هزيمة فرنسا ألحقت ألمانيا مقاطعتي الأزاز والورين، ولصرف انتباه فرنسا عن تلك المقاطعتين ألفت بسمارك نظر السياسة الفرنسية إلى تونس.

---

[1] - شوقي عبد الله الجمل، المرجع السابق، ص ص 122-123.

[2] - أحمد بن أبي الضياف، المصدر السابق، ج5، ص 73.

ثم إن انجلترا كانت لا تبدي أية معارضة في فكرة الغزو، ما دامت تعمل على تشتيت أوضاع الدولة العثمانية.

كما أن مؤتمر برلين يعلم بكل هذه المؤامرات لصرف أنظار الأوربيين إلى الشرق نسبة إلى الوضع الذي خلفته حرب 70 عاما.

وهنا اقتنعت فرنسا بالفكرة التي رأت فيها حماية مركزها بالجزائر، وإبعاد إيطاليا التي كانت تسعى لنفس الغرض، في وسط هذا الجو المشحون بالمؤامرات الأجنبية[1].

وتندرج الحملة العسكرية الفرنسية على البلاد التونسية، في إطار التوسع الاستعماري الأوربي خلال القرن 19[2]

ففي 12 أفريل تلقت القوات الفرنسية المرابطة بالجزائر أمرا باجتياز الحدود التونسية دون سابق إنذار[3]، لتتدخل عسكريا في البلاد التونسية وتحاصر قصر الباي بباردو[4].

وبعد معارك دامية طوق جيش الجنرال بربار، قصر محمد الصاق باي وأرغمه على توقيع معاهدة تعرف بمعاهدة باردو أو القصر السعيد وذلك في 1298هـ/12ماي 1881م[5].[6]

ولقد اعترفت فرنسا بسيادة الباي على البلاد التونسية، لكنها قيدته في الميدان المالي، وأصبحت تقوم مقامه فيما يتعلق بعلاقاته مع الخارج، وفي سنة 1298هـ/1881م لم يكن بإمكان فرنسا أن تتولى إلحاق الإيالة التونسية بالمقاطعات المجاورة لأن أغلبية الرأي العام الفرنسي، لم يكن موافقا على المحاولات الاستعمارية، وذلك للاستفادة التي كانت تستفيد منها الأقلية

---

[1] – يونس درمونة: تونس بين الحماية والاحتلال، مكتبة تونس الحرة، ص ص 17-18.

[2]– نفسه ،ص 23

[3]–خليفة الشاطر: تونس عبر التاريخ، الحركة الوطنية ودولة الاستقلال، مركز الدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية، تونس، 2005م، ص 7.

[4]–نفسه، ص23.

[5]- راغب السرحابي: قصة تونس من البداية إلى ثورة 2011 م، ط1، د الأقلام ، القاهرة، 1432هـ /2011م، ص23.

[6]–يونس درمونة، المرجع السابق، ص27.

الرأسمالية، كما أن فرنسا كانت تخشى رد فعل إيطاليا التي يمكن أن تنساق إلى الدخول في الحلف الثلاثي، فيزيد ذلك من عزلة فرنسا السياسية بأوربا.

فالمحافظة على السيادة التونسية كانت ضرورية لفرنسا، لكي تطمئن الدول الكبرى بخصوص تنفيذ المعاهدات، كما أن تونس كانت في ضائقة مالية هذا ما لا يشجع فرنسا على القيام بعملية إلحاق عنيفة [1]

وبعد توقيع معاهدة باردو أصبحت فرنسا لا ترغب في أي تدخل من الدول في تونس ما عدا سلطتها[2]

---

[1]- يونس درمونة، المرجع السابق، ص27.

[2]- أحمد القصاب، المرجع السابق، ص18

[2]- يونس درمونة، المرجع السابق، ص 27.

[3] - أحمد القصاب، المرجع السابق، ص 19.

خلال هذه الظروف السيئة تقوم شركة مالية كبرى هي الشركة المرسيلية الفرنسية، بتهيئة الحملة وكان لابد من إيجاد مبرر للقيام بهذا العمل، وسرعان ما قيل بأن الغرض من هذه الإجراءات هو إعادة الأمن والنظام وحماية تونس، ضد الاضطرابات التي تقوم بها قبيلة خمير، والملاحظ هنا أن معاهدة باردو لم تشر إلى أي تدخل في شؤون تونس الداخلية[2]

وفي ظل هذه الظروف تشهد تونس وفاة محمد الصادق باي وذلك في 1299هـ/1883م[3]، وفي هذه المعاهدة ذكرت لأول مرة كلمة الحماية. [4] [5]

وما يمكننا قوله في هذا الصدد أن الحماية الفرنسية على تونس كانت لها جذور تاريخية، بدءا من قناصلها التي كانت تعمل من أجل ذلك الهدف حيث كان تنتظر الفرصة السانحة لها لتضرب ضربتها.

---

[4] – الحماية: في مفهوم القانون الدولي هي النظام الذي يقضي بأن تضع دولة نفسها أو توضع تحت كتف دولة أقوى منها، وعليه هناك نوعين للحماية: 1– الحماية الاختيارية وتسمى بالحماية العادية، وتكون باتفاق دولة مع أخرى أقوى منها، أي تضع الأولى بنفسها بإرادتها تحت حماية الثانية تتولى الدفاع عنها، ولتقوم برعاية مصالحها الخارجية، ويقوم هذا النظام على أساس المعاهدة التي تبرم بينهما وتحدد فيها مدى ما للدولة من حقوق والتزامات.

2– الحماية القهرية: وهي تفرض على الدولة المحمية ويكون الغرض منها عادة كما يدل على ذلك اسمها، الفرق بين نظام الاستعمار المباشر وبين نظام الحماية الاستعمارية الاستعمار يضم المستعمرة للدولة المستعمرة، واعتبارها جزء من إقليمها وبذلك تفقد الدولة كيانها الخاص وصفتها الدولية، يونس درمونة، المرجع السابق، ص ص 19–20.

[5]– نفسه، ص 27.

المبحث الثالث: نقد وتقييم الكتاب

المطلب الأول :نقد الكتاب

المطلب الثاني : تقييم الكتاب

المطلب الثالث :أهمية الكتاب

نقد وتقييم الكتاب:

1 نقد الكتاب : لقد تعددت المفاهيم والمقاربات والدراسات حول أوضاع تونس خلال فترة حكم محمد الصادق باي على المستوى الداخلي والخارجي وتأثير القوى الخارجية على تلك الأوضاع مميزة بظهور عهد الأمان الذي حمل في طياته تغيرات جذرية مست مختلف الجوانب السياسية والعسكرية والاجتماعية إذ يعتبر كتاب إتحاف أهل الزمان لأخبار ملوك تونس وعهد الأمان للمؤلف أحمد ابن أبي الضياف مؤلفا واسع وغزير باعتباره مصدرا هاما يغطي جزءا كبيرا من مراحل الحكم الحسيني وأهم الأحداث البارزة فيه وهو يسخر بمعلومات هامة في الميدان العسكري والسياسي والاجتماعي والاقتصادي وقد سجل المؤلف كل ما كان يجده في زمنه مع إعطائه رأي واضح وصريح نابع عن معرفة تامة وتجربة عما يجري في قصر باردو وذلك بحكم موقعه في قصر الباي، حيث كان له اتصال وثيق بمصدر القرار السياسي، وله صداقة وصلة من وزراء الحزب ووزراء الحرب والبحر، فكتب في ذلك كما له أصدقاء تشارك بعض من آرائهم مثل خير الدين ورستم وحرر معهم القوانين السياسية منها والعسكرية وأوامر البايات وغيرها في الحرب والسلم.

ومن خلال هذا فإن هنا المؤلف يعتبر أهم مصدر يمكن لباحث تاريخ أن يعتمد عليه في دراسة تاريخ تونس بداية من العصر الحسيني

2 تقييم الكتاب : من خلال دراستنا لكتاب إتحاف أهل الزمان لأخبار ملوك تونس وعهد الأمان للمؤلف أحمد ابن أبي الضياف، الذي جمع بين أسلوب من سبقه من المؤرخين التقليديين وأسلوب من خلفه، فقد كان إخباريا في نقل تلك الأحداث ولم يقتصر على ذكر الحوادث السياسية بل تناول كل ما يتعرض له مجتمعه من تقلبات سياسية واجتماعية واقتصادية بأسلوب تحليل نقدي، وجمعت مقدمته بين علم السياسية وفلسفة التاريخ لكن تلك الأفكار لم تبقى حبيسة المقدمة، بل كانت تطل علينا دوما في كل الأبواب فقد تطرق المؤلف في هذا الكتاب إلى أهم المراحل التاريخية والأحداث التي مرت بها تونس عبر التاريخ فهو ليس مؤرخا فحسب بل رجل سياسي تطرق إلى أخطر الفترات منها تحديث أحمد باي وثورة ابن أبي غداهم وازدياد التدخل الأوربي في شؤون تونس ولجوء محمد الصادق باي إلى الاقتراض من الأجانب وفرض الرقابة الأجنبية المالية التونسية ومن هنا فلم يكن ابن أبي الضياف موظف حكومي فحسب بل أحد زعماء الإصلاح، وقد انعكست أفكاره الإصلاحية في مواقفه وكتاباته، ولعل إعطاء كتابه العنوان "إتحاف أهل الزمان لأخبار ملوك تونس وعهد الأمان" له صلة وثيقة تجعل منه وثيقة حية للتاريخ الاصطلاحي التونسي.

3 تقييم الكتاب : يعتبر كتاب إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان للمؤلف أحمد ابن أبي الضياف الذي استغرق انجازه عشرة أعوام ونيف موسوعة علمية يحمل في طياته الكثير من المعلومات التاريخية لتاريخ تونس في الحكم وأصنافه ومراحله بداية من العصر الحسيني إضافة إلى اهتماماته بالجاليات الأجنبية وتطور نشاطها وازدياد تأثيرها وتسلطها على الحياة الاقتصادية وتأثيرها على ماهية تونس الخارجية، كما اهتم بنشاط القناصل الأجانب ودورهم المتزايد في تطور الأحداث، وكان مصدرها وثائق عديدة تتعلق بالبنية الداخلية والخارجي كان قد حررها بنفسه واحتفظ بها، كما استخدم الحوليات فلم يكن مجرد إخباري في سرد الأخبار بل كان مؤرخا يفسر ويحلل وينتقد ويصحح.

لقد كان أسلوب أحمد ابن أبي الضياف دقيقا واضحا في توضيع العبارة وتقريبها للفهم بحسب اصطلاح التخاطب والأسماء والألقاب الجارية في عرف البلد، حيث كان ابن العصر الذي يعيش فيه، حيث انتشرت فكرة الحرية والقومية أكثر الأفكار تأثيرا وانتقلت بواسطة بعض التنورين مثل رفاقه الطهطاوي، وابن أبي الضياف، محمود أقبادو.

خاتمة

خاتمة:

شهدت الإيالة التونسية في القرن 19م خاصة في النصف الثاني منه تغيرات مست مختلف جوانب الحياة، وذلك بتقلد محمد الصادق باي منصب الحاكم الذي حاول منذ بداية حكمه ببعض الإصلاحات خاصة الدستورية منها، وخاصة بعد أن وجد عهد الأمان جاهزا، لكن طموح محمد الصادق باي ونفسه المالية إلى إهمال شؤون الدولة والتي أسندها في يد وزرائه الذين تميز بعضهم بالتأثير السلبي والمباشر في سياسة الدولة، أمثال مصطفى الخزندار ومصطفى ابن إسماعيل، هذا ما أدى إلى ظهور اضطرابات وصراعات داخلية أثرت في المجتمع التونسي التي أنهكته بالضرائب، مما نتج عنها ظهور ثورات داخلية، تأزم من خلالها الوضع الاقتصادي من زراعة وصناعة وتجارة داخليا وخارجيا، هذا ما انجر عنه تدهور الحالة الاجتماعية بانتشار الأمراض والأوبئة.

إن تردي هذه الأوضاع في الإيالة التونسية، راجع إلى تدخل وتزايد الأطماع الأوربية في شؤونها الداخلية بالدرجة الأولى، خاصة منها الفرنسية والتي كانت تعمل جاهدة في تخطيط التباعد بين الدولة العثمانية والإيالة التونسية، فاعتمدت في ذلك على قناصلها الذين كان لهم الدور الكبير في ربط البلاد التونسية بفرنسا، للحصول على السيطرة السياسية والتجاري، ضف إلى ذلك الرغبة الجامحة للدولة العثمانية في محاولة الاستيلاء على تونس، إلا أن الحظ الأوفر كان لفرنسا وذلك بفرض الحماية الفرنسية عليها.

قائمة الملاحق

الملحق رقم (1): وثيقة عهد الأمان [1]

وهذا القانون السياسي يستدعي زمنا لتحرير ترتيبه ، وتدوينه وتهذيبه . وأرجو الله الذي ينظر الى قلوبنا أن تستقيم به أحوال الرئاسة ، ولا يخالفه ما ورد عن السلف الصالح من اعتبار السياسة ، وأنا العبد الفقير أعجّل لمرضاة ربي دما تطمئن اليه النفوس ، وتكون منزلته في النفس منزلة المشاهد المحسوس . وتأسيسه على قواعد :

الاولى : تأكيد الامان ، لسائر رعيتنا وسكان ايالتنا على اختلاف الاديان . والالسنة والالوان ، في ابدانهم المكرَّمة ، واموالهم المحرَّمة ، وأعراضهم المحترمة ، الا بحق يوجبه نظر المجلس بالمشورة ويرفعه إلينا ، ولنا النظر في الإمضاء او التخفيف ما أمكن او الإذن باعادة النظر .

الثانية : تساوي الناس في اصل قانون الاداء المرتب او ما يترتب ، وان اختلف باختلاف الكمية ، بحيث لا يسقط القانون عن العظيم لعظمته ، ولا يحط على الحقير لحقارته ، ويأتي بيانه موضحا .

الثالثة : التسوية بين المسلم وغيره من سكان الإيالة في استحقاق الإنصاف ، لان استحقاقه لذلك بوصف الانسانية لا بغيره من الاوصاف . والعدل في الارض هو الميزان المستوي ، يؤخذ به للمُحِقّ من المبطل وللضعيف من القوي .

الرابعة : ان الذمّي من رعيتنا لا يُجبَر على تبديل دينه ولا يمنع من إجراء ما يلزم ديانته ، ولا تُمتَهَن مجامعهم ويكون لها الامان من الاذاية والامتهان ، لان ذمّتهم تقتضي أن لهم ما لنا وعليهم ما علينا .

الخامسة : لما كان العسكر من أسباب حفظ النوع ، ومصلحتُه تعمُّ المجموع ، ولا بدّ للانسان من زمن لتدبير عيشه والقيام على أهله ، فلا نأخذ العسكر الا بترتيب وقرعة ، ولا يبقى العسكري في الحدمة اكثر من مدة معلومة ، كما نحرره في قانون العسكر .

السادسة : ان مجلس النظر في الجنايات ، اذا كان الحكم فيه بعقوبة على أحد من أهل الذمة ، يلزم ان يحضره من نعيّنه من كبرائهم ، تأنيسا انفوسهم ودفعا لما يتوقعونه من الحيف ، والشريعة توصي بهم خيرا .

السابعة : ان نجعل مجلسا للتجارة برئيس وكاتب وأعضاء من المسلمين وغيرهم من رعايا احبابنا الدول للنظر في نوازل التجارات ، بعد الاتفاق مع احبابنا الدول العظام في كيفية دخول رعاياهم تحت حكم المجلس ، كما يأتي ايضاح تفصيله ، قطعا لتشعب الخصام .

الثامنة : ان سائر رعيتنا من المسلمين وغيرهم ، لهم المساواة في الامور العرفية والقوانين الحكمية ، لا فضل لاحدهم على الآخر في ذلك .

التاسعة : تسريح المتجر من اختصاص أحد به ، بل يكون مباحا لكل أحد . ولا تتاجر الدولة بتجارة ولا تمنع غيرها منها . وتكون العناية باعانة عموم المتجر ومنع اسباب تعطيله .

العاشرة : ان الوافدين على ايالتنا لهم ان يحترفوا سائر الصنائع والخدم ، بشرط ان يتبعوا القوانين المرتبة والتي يمكن ان تترتب ، مثل سائر اهل البلاد لا فضل لاحدهم على الآخر ، بعد انفصالنا مع دولهم في كيفية دخولهم تحت ذلك ، كما يأتي بيانه .

---

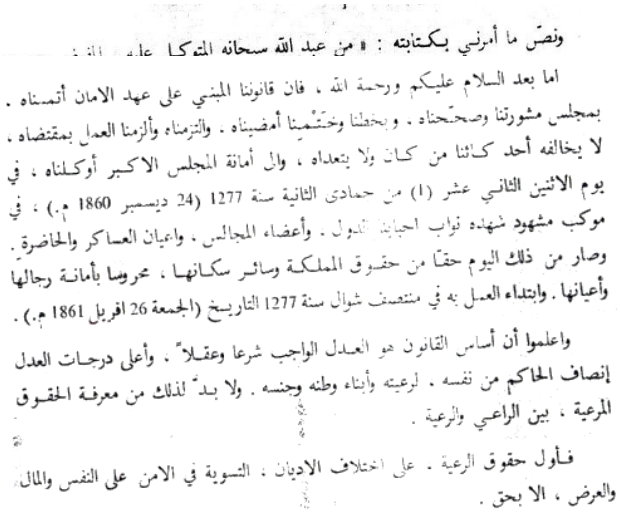
[1] مصدر السابق، ج04، ص 242.

الملحق رقم (02): صورة محمد الصادق باي [1]



[1]-محمد بن الخوجة: المصدر السابق، ص 87.

الملحق رقم (03): دستور عهد الامان [2]



ونصّ ما أمرني بكتابته : « من عبد الله سبحانه المتوكل عليه [illegible]

اما بعد السلام عليكم ورحمة الله ، فان قانوننا المبني على عهد الامان أتممناه ، بمجلس مشورتنا وصحّحناه ، وبخطنا وختمنا أمضيناه ، والتزمناه وألزمنا العمل بمقتضاه ، لا يخالفه أحد كائنا من كان ولا يتعداه ، والى أمانة المجلس الاكبر أوكلناه ، في يوم الاثنين الثاني عشر (1) من جمادى الثانية سنة 1277 (24 ديسمبر 1860 م.) ، في موكب مشهود شهده نواب احبابنا الدول ، وأعضاء المجالس ، واعيان العساكر والحاضرة ، وصار من ذلك اليوم حقّا من حقوق المملكة وسائر سكانها ، محروسا بأمانة رجالها وأعيانها . وابتداء العمل به في منتصف شوال سنة 1277 التاريخ (الجمعة 26 افريل 1861 م.) .

واعلموا أن أساس القانون هو العدل الواجب شرعا وعقلاً ، وأعلى درجات العدل إنصاف الحاكم من نفسه ، لرعيته وأبناء وطنه وجنسه ، ولا بدّ لذلك من معرفة الحقوق المرعية ، بين الراعي والرعية .

فأول حقوق الرعية ، على اختلاف الاديان ، التسوية في الامن على النفس والمال والعرض ، الا بحق .

---

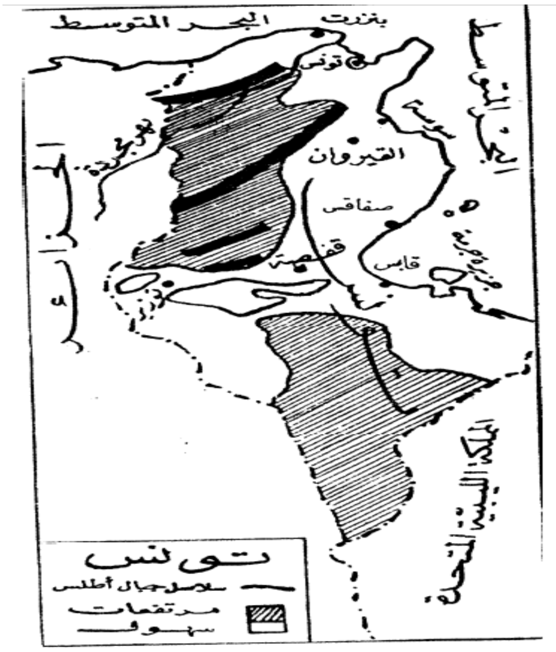
[2]-أحمد بن أبي الضياف: المصدر السابق، ج05، ص 50-52.

الملحق رقم (04): خريطة مسار الحملة [2]



[2] -خليفة الشاطر: المرجع السابق، ص 15.

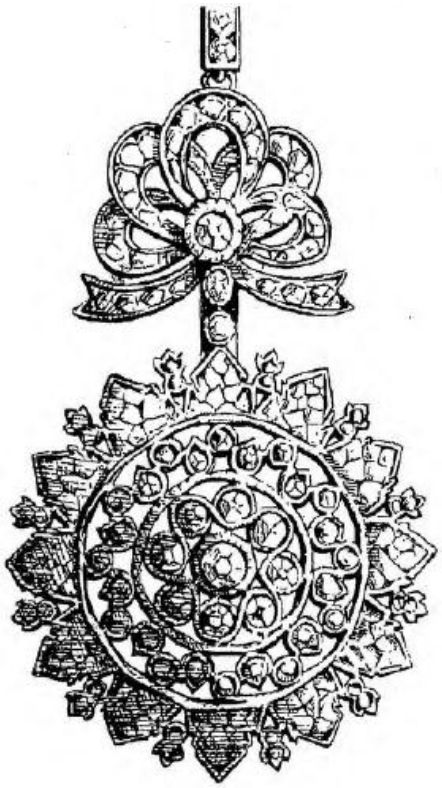
الملحق رقم (06): الخريطة الطبيعية في تونس [1]



---

[1] -حسن محمد الجوهر: ص 01.

الملحق رقم (07): النيشان الحسيني [2]



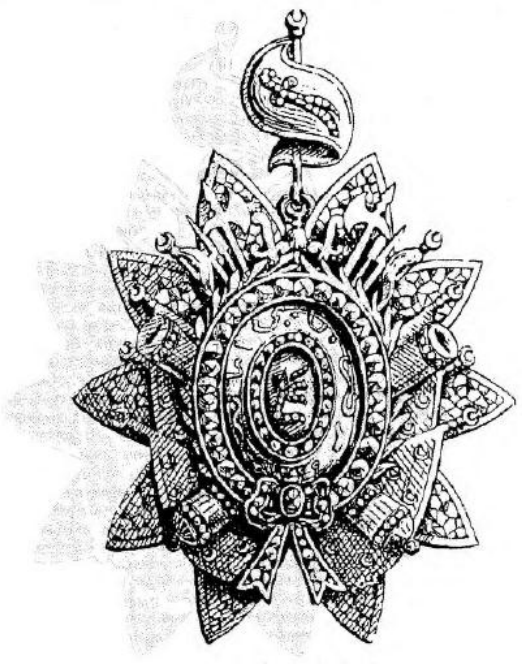
[2] -محمد بن الخوجة: المرجع السابق، ص 105.

الملحق رقم (08): النيشان عهد الأمان [1]



[1] -محمد بن الخوجة: المرجع السابق، ص 108.

الملحق رقم (9): نيشان العهد المرصع [2]



[2] -محمد بن الخوجة: المرجع السابق، ص 110.

الملحق رقم (10): صورة المدرسة الصادقية [1]



[1] محمد بن الخوجة ، المصدر السابق ، ص 318

فهرس المحتويات

العنوان	الصفحة
الشكر و التقدير	
الاهداء	
المقدمة	**01**
مدخل تمهيدي: أحمد بن أبي الضياف مؤرخا و حال الايالة التونسية في النصف الأول من القرن 19م	**06**
المطلب الاول : التعريف بالمؤلف	**07**
المطلب الثاني : التعريف بالكتاب	**08**
المطلب الثالث : نبذة تاريخية قبيل حكم محمد الصادق باي	**10**
المبحث الاول : فترة حكم محمد الصادق باي	**16**
المطلب الاول **:**الأوضاع السياسية	**17**
المطلب الثاني **:**الاوضاع الاقتصادية	**28**
المطلب الثالث **:**الأوضاع الاجتماعية	**35**
المبحث الثاني :علاقات تونس الخارجية و فرض الحماية	**51**
المطلب الأول :علاقة تونس و فرض الحماية	**51**
المطلب الثاني :علاقة تونس مع الدول الأجنبية(فرنسا انجلترا ايطاليا)	**53**
المبحث الثالث : نقد وتقييم الكتاب	**59**
المطلب الاول **:نقد الكتاب**	**60**
المطلب الثاني **:تقييم الكتاب**	**61**
المطلب الثالث **:أهمية الكتاب**	**62**
خاتمة	**64**
قائمة الملاحق	**65**
قائمة المصادر و المراجع	**77**
فهرس المحتويات	**83**